

تيمورلنك ودولة المماليك البحرية كسنة

ترجمة مقال الكاتب ^{مصحح} اللاتيني دي ميخائيل
عن حياة تيمورلنك

تأليف

دكتور محمد عبد الكريم سليمان

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

الصفحة

القسم الأول

١ — ٤٨ تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

٧ — ٨ مقدمة :

٩ — ١٤ (أ) تيمورلنك والمغول الجغتائيون :

— نشأته — استيلاؤه على السلطة فى إقليم ما وراء
النهر

١٤ — ١٦ (ب) امبراطورية تيمورلنك :

— اخضاع الدويلات المستقلة فى غرب آسيا
دولة الكرت — دولة السريداريين — الدولة
المظفرية — الدولة الجلائرية
— استيلاء تيمورلنك على بغداد سنة ٨٧٩٥ / ١٣٩٣ م
وهروب حاكمها السلطان أحمد بن أويس الجلائرى
الى مصر

١٧ — ٢١ (ج) تيمورلنك والسلطان المملوكى الظاهر برقوق

— هزيمة قوات تيمورلنك عند الفرات وعودة أحمد
ابن أويس الى بغداد
— حملة تيمورلنك على بلاد الهند وزوال الخطر
مؤقتا عن سلطنة المماليك

الصفحة

(د) تيمورلنك والسلطان الناصر فرج بن برقوق :

٣٩-٢١

— الثورة ضد أحمد بن أويس في بغداد وهروبه الى
السلطان العثماني بايزيد

— استيلاء تيمورلنك على حلب في ربيع الأول سنة
٨٠٣هـ / أكتوبر ١٤٠٠ م

— الموقف السياسي والعسكري في مصر بعد استيلاء
تيمورلنك على حلب

— فشل الناصر فرج في مواجهة تيمورلنك في
دمشق ، وعودة الناصر فرج الى مصر

٣٩-٣٢ — استيلاء تيمورلنك على دمشق وتخليبها

(هـ) خاتمة

٤١-٤٠

(و) المصادر والمراجع

٤٧-٤٢

القسم الثاني

ترجمة مقال الكاتب اللاتيني دي ميچنانللى

٤٨- ١

(أ) المقدمة ٣-٦

(ب) تحقيق النص ٧-٤٤

(ج) مصادر التحقيق ٤٥-٤٧

مقدمة

ظلت فكرة الغزو العسكرى لبلاد الشام تراود قادة المغول منذ أن هزمت قواتهم على يد المماليك فى عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . ومنذ أن أسس هولاكو دولة مغول فارس لم يتوقف أبناؤه — الايلخانيون — عن بذل المحاولات العديدة من أجل تحقيق تلك الفكرة ، وسعوا من أجل ذلك الى التحالف مع الغرب الصليبي للقيام بهجوم مشترك على أراضي سلطنة المماليك غير أن تلك الجهود باءت كلها بالفشل الذريع ، فمن ناحية لم يقدم الغرب الأوروبى سوى الوعود الكاذبة لأنه شك فى قدرة المغول على تحقيق ما فشلت فيه القوى الصليبية طوال قرنين من الزمان ، ومن ناحية أخرى واجه المغول هزائم عديدة أشد قسوة على يد المماليك من معركة عين جالوت ، فقد أنزل بهم انظار بيبرس الهزيمة عند البيرة سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م ، وعند الأبلستين سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م ، كما ألحق بهم السلطان قلاوون الهزيمة عند حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، ثم كان انتصار السلطان محمد بن قلاوون الرائع على المغول فى معركة مرج الصفر (شقحب) عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م . وقد توفى الخطر المغولى على بلاد الشام مؤقتا بعد الصلح الذى عقده السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع أبى سعيد ايلخان فارس عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م ، وتفكك دولة مغول فارس بعد وفاة أبى سعيد عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م .

وتجدد الخطر المغولى مرة أخرى فى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى عندما ظهر زعيم ينتسب للمغول هو تيمور لنك تمكن من الاستيلاء على اقليم ما وراء النهر الذى كان جزءا من دولة المغول الجغتائيين — احدى الدول التى انقسمت اليها امبراطورية جنكيزخان — ثم تمكن تيمور لنك من تأسيس امبراطورية كبيرة ونشر الخراب والدمار

وسفك الدماء فى كل أرض دخلها • كما هاجم بلاد الشام ودمر مدنه الرئيسية لا سيما حلب ودمشق ، غير أن الظروف السياسية والعسكرية لم تمكن تيمور لك من البقاء فى المدن الشامية فترة طويلة بسبب استعداداته العسكرية لمواجهة السلطان العثمانى بازيد • وهكذا تمكن للمماليك من استعادة بلاد الشام فور رحيل تيمور لك •

ومع أن حملة تيمور لك على بلاد الشام التى حدثت فى عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م فى فترة حكم السلطان الناصر فرج ٨٠١-٨١٥ هـ / ١٣٩٩-١٤١٢ م جديرة بدراستها لاطهار طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين مصر ومختلف دول العالم آنذاك ، وابرار نواحى الضعف والقوة فى سياسة مصر فى تلك الفترة ، الا أن الدراسات العربية المتأنية والدقيقة لتلك الحملة لا تزال غير كافية ، وهذا ما دفعنى لقتبع أحداث حملة نيمور لك على بلاد الشام والقاء الضوء على مقدماتها وأحداثها ونتائجها •

ورأيت استكمالا للفائدة ترجمة مقال دى ميجنانالى De Mignanelli للكاتب اللاتينى المعاصر لأحداث هجوم تيمور لك على بلاد الشام وتدميره حلب ودمشق • وهو المقال الذى يحمل عنوان : حياة تاملان Vita Tamerlani أو خراب دمشق Ruina Damasci •

وقد سبق أن ترجم هذا المقال من اللاتينية الى الانجليزية الاسناد والقر فشل ، وأقدمه بدورى مترجما ومحققا الى اللغة العربية مع التعليق عليه فى القسم الثانى من هذا الكتاب . وذلك لأهمية هذا المقال وما يحتويه من معلومات تاريخية مفيدة عن أحوال مصر والشام فى مطلع القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى •

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه •

والله ولى التوفيق ••

د • أحمد عبد الكريم سليمان

القسم الأول

تيمور لنك ودولة الممالك الجراكسة

— تيمور لنك والمغول الجفطائيون

— امبراطورية تيمور لنك

— تيمور لنك والسلطان المملوكي الظاهر برقوق

— تيمور لنك والسلطان الناصر فرج بن برقوق

تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

تيمورلنك والمغول الجغتائيون :

ولد تيمورلنك في عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م في مدينة كتش Kech جنوب سمرقند في منطقة كشكا داريا Qashka Darya في اقليم ما وراء النهر^(١) . وكان ابنا لطراغاي من عشيرة البرلاس ، وهي من عشائر المغول التي قدمت مع الجغتائيين الى ما وراء النهر عند احتلالهم لهذه المنطقة ، وقد أصبحت هذه العشيرة ضمن المغول المنتركين^(٢) . ويختلف المؤرخون في نسب تيمورلنك وارتقائه الى عائلة جنكيزخان . غير أن تيمور نفسه لم يدع هذا الانتساب ، فلم يحتفظ ضمن ألقابه بلقب « الخان » ، بل كان لقبه « الأمير » . ولكي يوضح علاقته بالبيت المغولي فإنه حاز على لقب « جوركان » أو « كوركمان » بمعنى صهر المانوك أو

(١) تقع مدينة كتش على نهر كشكا داريا في اقليم ما وراء النهر ، وقد سميت هذه المدينة في العصور الوسطى باسم شهر بزاب أو شهر سبزاب المدينة الخضراء .

انظر : لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ٥١٢-٥١٣ .

(2) Grousset, L'Empire des steppes, p. 486; Alessandro Bausani, The Persians from the earliest days to the twentieth century..., p. 124; Hilda H., Tamburlaine, p. 41; Spuler, B., les Mongols dans L'histoire, p. 102; Joseph E. Schwartzberg, A Historical Atlas of south Asia- p. 198—199.

وانظر المصادر العربية التالية وفيها أن تيمور ولد سنة ٧٢٨ هـ :

ابن عريشاه : كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٥-٦ ، ابن العماد الحنبلي : ذخرات الذهب في أخبار من ذهب مجلد ٤ حوادث سنة ٨٠٧ هـ ص ٦٢ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافى على المنهل الصافى ج ١ ص ٢٢٤ ترجمة رقم ٧٨٥ .

صهر الخان^(٣) . ومهما اختلفت الآراء والروايات فى نسب تيمورلنك ، فان الواقع التاريخى يثبت أنه كان امتدادا فعليا للمغول وحضارتهم ، وأن تاريخه يمثل جزءا من التاريخ المغولى وحلقة من حلقاته .

وكانت دولة المغول الجغطائيين فى أواسط آسيا قد دب فيها الانحلال والتفكك منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى بفعل عوامل عديدة أهمها زيادة نفوذ الارستقراطية العسكرية فى الدولة ، وضعف شخصية الخانات ، والخلاف بين سكان البلاد المسلمين والغزاة المغول^(٤) . وقد انقسمت دولة المغول الجغطائيين آنذاك الى اقليمين : اقليم مغولستان فى الشرق ويمتد من نهر سيحون Sirdarya الى خوغن تاريم ونهر آرئس ، واطليم ها وراء النهر فى الغرب ، وقد حكم كل من الاقليمين بفرع مختلف من العائلة الجغطائية . ثم استمر الصراع بين الاقليمين من ناحية ، وداخل كل اقليم من ناحية أخرى ، وسيطرت العشائر المغولية والتركية على المناطق التى أقامت فيها ، ومن تلك العشائر عشيرة البرلاس التى ينتمى اليها تيمورلنك ، وقد سيطرت على منطقة كئشكا داريا فى اقليم ما وراء النهر^(٥) .

(3) Hilda, op. cit., p. 41; Barthold, four studies on the history of Central Asia, vol. 11, p. 9;

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ص ٢١٧ ، وقد ذكر خواندمير أن نسب تيمور يرجع حسب ما ذكره الكتب الشهيرة الى « قراجار نويان » رأس قبيلة البرلاس فى عهد الفاتح المغولى جنكيزخان ، فى حين ذكر البدلبسى أن تيمور من أسره مغولية يرتقى نسبها الى جنكيزخان أو أحد أقربائه ، أما جروسية فيرى أن تيمور لم يكن مغوليا قط بل تركيا من عشيرة البرلاس . انظر : خواندمير : دستور الوزراء ترجمة وتعليق د. حبيب أمين سليمان ص ٣٩٢ ضمن كتابه « المؤرخ الايراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء » ، البدلبسى : شرحنامه ج ٢ يعريب محمد على عوفى ص ٥٥ ،

Grousset, op. cit., p. 486.

(4) Hilda, op. cit., p. 38—40, Phillips, E., The Mongols, p. 125.

(5) Hilda, op. cit., pp. 38—40.

وكان تيمور لك في بداية حياته فارسا ممتازا وماهرا في الرمي والسهام ، كما كان طموحا الى أن يكون من أصحاب النفوذ في اقليمه ، وعلى ذلك كون له اتباعا مسلحين أخذ يستخدمهم في غارات النهب والسلب ، وبسبب غاراته أصيب في أحد المعارك في كتفه وفخذه فأصبحت رجله عرجاء ، وذراعه مشلولة^(٦) . وحازت الفرصة لتيمور لك لتحقيق طموحاته عندما نشبت الاضطرابات والفتن في اقليمها وراء النهر عقب قتل أحد الأمراء من أصحاب النفوذ وهو الأمير قازاغان سنة ١٣٥٨ م ، فعزا عندئذ تغلق تيمور خان الجغتائيين في اقليم مغولستان - غزا اقليم ما وراء النهر بحجة اعادة توحيد اقطاع جغتاي الى ما كان عليه ، وقد أعلن حاجي برلوس زعيم عشيرة برلاس في منطقة كشكا داريا التي هاجمها تغلق تيمور المقاومة غير المتكافئة ، وهرب من شهر يزاب الى خراسان . وهنا نجد تيمور لك بدلا من مقاومة الغزاة لاقليم عشيرته ، فجده يسارع باستغلال هذه الفرصة والدخول في طاعة تغلق تيمور خان مغولستان . فرحب بذلك تغلق وأسند الى تيمور لك حكم منطقة كشكا داريا^(٧) . ثم خاض تيمور لك بعد ذلك نصالا مريرا ضد الأمراء المحليين المنافسين له ، وضد الجغتائيين أنفسهم حتى تخلص من معظم خصومه ، بحيث لم يأت عام ١٣٧٠م/٧٧١هـ حتى أصبح تيمور لك هو الشخصية الرئيسية في بلاد ما وراء النهر ، لكنه مع ذلك احتفظ دائما

(٦) ابن عريشاه : مصدر سابق ص ٦ ، ابن العماد الحنبلي . مصدر سابق مجلد ٤ سنة ٨٠٧ هـ ص ٦٣ .

ويقال في أسباب اصابته روايات أخرى انظر :

Hilda, op. cit., p. 43—44;

وكان اسمه في البداية تيمور ، ولما أصيب في فخذه اضيف الى اسمه المقطع Lank أي الأعرج ، فأصبح اسمه تيمور لك ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٥٥ ،

De Mignanelli, vita Tamerlani, p 228, Note 1, in «Orions, vol.3,» 1956.

وانظر القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٣٩ هامش ٦١ ،

(7) Hilda, op. cit., p 42-43; Grousset, op cit., p. 487—488

بوجود رمز للخانات الجغتائيين : فى حين أصبحت السلطة الحقيقية فى يد تيمورلنك الذى أعان انه وريث لامبراطورية الجغتائيين^(٨) .

امبراطورية تيمورلنك :

وبدأ تيمورلنك فى وضع استراتيجية تهدف الى انشاء امبراطورية مغولية كبرى على غرار امبراطورية جنكيزخان + ومن أجل تحقيق ذلك الهدف امتد نشاط تيمورلنك العسكرى من نهر الفولجا فى روسيا حتى دمشق فى الشام ، ومن أزمير فى آسيا الصغرى حتى نهر الجانج فى الهند ، ناشر الخراب والدمار والمذابح فى كل المناطق التى دخلها دون أن يستقر له حكم فيها + فبعد أن تمكن من ضم اقليم خوارزم الى مملكته سنة ٧٨١ هـ / ١٣٨٠ م^(٩) شرع فى غزو فارس منذ سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨١ م ، فعبّر نهر جيحون واخترق خراسان وزحف نحو هراة عاصمة الكرت حيث أخضع حاكمها غياث الدين على لسلطانه^(١٠) ، ثم اتجه تيمورلنك الى شرق

(8) Hilda, op. cit., pp. 48—51; Grousset, op. cit., p. 493—494; Desmaisons, p., Histoire des Mongols et des Ta Tares par Aboul-Ghazi Behadour Khan, p. 163.

(٩) البديسى : مصدر سابق ج ٢ ص ٥٩—٦٠ .
Grousset, op. cit., p. 498—499; Hilda, op. cit., pp. 90—95.

(١٠) البديسى : مصدر سابق ج ٢ ص ٦١ .
Lucien Bouvat, L'Empire Mongole, p. 43; Grousset, op. cit., p. 505—506; Alessandro, B., op. cit., p. 125; Hilda, op. cit., p. 103—106; Spuler, op. cit., p. 106.

وعندما ضعفت دولة مغول فارس وانقرضت سلالة هولاكو بولت أبى سعيد سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م نشأت على انقاضها أربع دول هى : الدولة الجلائرية ، والدولة المظفربة ، ودولة كرت ، والدولة السريدارية . وكان الجلائريون يحكمون مناطق بغداد ونوريز فى أفريجان وعاصمتهم توريز ، فى حين حكم المظفريون — وهم من العرب — فى فارس وعراق العجم وكرمان وعاصمتهم يزد ، أما الكرت فحكموا فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس والاقاليم المجاورة لها وعاصمتهم هراة ، وحكم السريداريون فى سبزاور فى خراسان ، للمزيد من التفاصيل أنظر :

Browne, A literary history of Persia, vol. 11, pp. 60, 161—180; Lucien B.; op. cit., pp. 26 — 30; Grousset, op. cit., p. 504; Sykes p., A history of Persia, vol. 11, p. 116—117; Cambridge history of Iran, vol. 5, p. 413—414.

بخراسان فاستولى على سبزاور وقضى على أسرة السبرداريين بها ، كما استولى على مازندران وسيستان (١١) .

وواصل تيمورلنك حملاته العسكرية لاختضاع بلاد فارس كلها ، فهاجم هنذ سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦ م المناطق الغربية منها ، وزحف على أذربيجان ودخل توريز ، ثم اتجه الى جورجيا وأرمينيا عندما سمع بأخبار هجوم خصمه طقتمش خان القفجاق على أذربيجان سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧ م فعاد على الفور لمواجهة . وبعد حرب قصيرة مع خان القفجاق عاد تيمورلنك الى عملياته العسكرية في غرب أرمينيا حيث هاجم الأمراء التركمان بها . كما استولى تيمورلنك على شيراز واصفهان وكرمان وقضى على الأسرة المظفرية الحاكمة في تلك المناطق ، وقتل في اصفهان وحدها سبعين ألف شخص ، كما نقل الحرفيين من تلك البلاد الى عاصمته سمرقند ، وقد استغرقت تلك الحروب من تيمورلنك حتى سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣ م (١٢) .

وكان يحكم الدولة الجلائرية في تلك الفترة السلطان أحمد بن أويس ، وقد أدرك سلطان الجلائريين نوايا تيمورلنك ضده ، وأن دولة الجلائريين لن تسلم من المصير الذي آلت اليه سائر الدول الأخرى في فارس ، وبوجه خاص بعد أن حاول تيمورلنك في عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٦ م القضاء على أحمد بن أويس في تبريز لولا فراره الى بغداد (١٣) . وبعد

(11) Alessandro, B., op. cit., p. 125; Grousset, op. cit., p. 506—507; Lucien Bouvat, op. cit., p. 43; Browne, op. cit., vol. 111, p. 160 Hilda, op. cit., pp. 106—108.

(12) Grousset, op. cit., pp. 508-511; Browne, op. cit., vol., 111, p. 160, 191; Alessandro, B., op. cit., p. 126; Hilda, op. cit., pp. 113—115; Grousset, Histoire de L'Asie, Part 111, Le Mond Mongol, p. 117.

(١٣) ابن حجر العسقلاني : انباء الغمر بأبناء العمر ج ١ « نحقيق د . حسن حبشي » ص ٣١٢ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٢٦ مخطوط حوادث سنة ٧٨٨هـ / ص ٣٠٧ ،

Howorth, History of the Mongols, Part 111, p. 661—662.

أن استولى تيمورلنك على الامارات التركمانية في أرمينيا وكانت خاضعة من الناحية الاسمية لأحمد بن أويس^(١٤) ، قرر أى تيمورلنك فى عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م الزحف على بغداد ، فأسرع أحمد بن أويس برسالة الهدايا الثمينة اليه واعتذر فى نفس الوقت عن الحضور بشخصه لمقابلة الفاتح المغولى ، كما أبدى انزعاجه من القوة العسكرية الهائلة التى ناصبته . ولم يؤد ذلك الاجراء من جانب أحمد بن أويس الى ارضاء تيمورلنك الذى أمر على الداء له فى خطبة الجمعة فى مساجد بغداد وسك العملة باسمه بما يعنى خضوع أحمد بن أويس له خضوعاً طعياً^(١٥) . ومع أن أحمد بن أويس قد استجاب لكل تلك الطنبات ، فلبس خلعة تيمورلنك وضرب السكة باسمه كما ذكر اسمه فى الخطبة الا أن ذلك لم يؤد الى حماية مملكة أحمد بن أويس من هجمات تيمورلنك ، ذلك أن أحمد بن أويس كان حاكماً ظالماً لرعاياه ، فحث هؤلاء تيمورلنك على الاستيلاء على بغداد ، فاستغل تيمورلنك هذه الفرصة وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م ، فهرب أحمد بن أويس الى القاهرة حيث استقبله السلطان برقوق بترحاب كبير^(١٦) .

(14) Howorth, op. cit., Part 111, p. 661—662.

(15) Browne, op. cit., vol. 111, p. 191; Lucien, B., op. cit, p, 49; Howorth, op. cit., part 111, p. 662;

(١٦) الخطيب الجوهري : نزهة النفوس والأبدان فى نوارخ الرمان تحقيق د. حسن حبشى ج ١ ص ٣٦٣—٣٦٥ ، ٣٧٥—٣٧٧ ، ابن قاضى شهاب : تاريخه . الجزء الثالث منه تحقيق عدنان درويش ص ٤٧٣—٤٧٨ ، ٥٠٤—٥٠٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ ج ٢ تحقيق د. قسطنطين زريق ، د. نجلا عز الدين ص ٣٤٤—٣٤٥ ، ٣٦٦—٣٦٧ ، العيني : مصدر سابق حوادث سنة ٧٩٥ هـ ص ٤٤٦—٤٤٨ ، ص ٤٥٢—٤٥٣ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٠ ، ٤٦٩ ، ابن خلدون : التعرف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً نشره محمد بن تاووت الطنجى ص ٣٦٤ : المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ص ٧٨٧—٧٨٩ ، ص ٧٩٩—٨٠١ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٤٣—٤٩ ، د. حكيم امين : فيهم دولة المماليك النائمة ص ١٢٣—١٢٤ ،

J. Aubin, Tamerlan à Bagdad, p 303, in «Arabica vol IX 1962».

تيمور لنك والظاهر برقوق :

وبعد أن فشل تيمورلنك فى القبض على أحمد بن أويس - حسب جام غضبه على أهل بغداد وصادرهم ثلاث مرات ، وأنزل بهم حسنوف العذاب^(١٧) ، ثم حاول خداع السلطان برقوق سلطان مصر ، فأرسل إليه رسالة طلب فيها عقد معاهدة صداقة بين الجانبين ، ونسهيل التجارة . كما طلب فى نفس الوقت ارسال أحمد بن أويس إليه^(١٨) . لكن السلطان برقوق الذى أدرك بثاقب بصره خطورة القوة المغولية الجديدة النامية فى الشرق ، أدرك أيضا أن تسليم اللاجئين السياسى الى القاهرة هو اهانة كبيرة لشخص سلطان مصر والدولة المملوكية بأسرها . وعلى ذلك رغب بشفة طلب تيمورلنك وأعلن أنه لن يسلم السلطان الجلائرى أحمد بن أويس بل لن يتخلى أيضا عن أقل مملوك من ممالك ذلك السلطان^(١٩) . وأخذ الظاهر برقوق يستعد للحرب ، كما تم قتل رسالتيمورلنك عند الرحبة^(٢٠) .

(١٧) ابن قاضى شهاب : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٧٥ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٣ .

(١٨) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٢ .

Grousset, L'Empire des Steppes, p. 527; Howorth, op cit., part 111, p. 666, Browne, op. cit., vol. 111, p 191; M. Prawdin, The Mongol empire, its rise and Legacy, p. 469; Lucien Bouvat, op. cit., p. 49;

وانظر ايضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٦٧-١٦٨ .

(19) De Mignanelli, Ascensus Barcoch, p. 167, in «Arabica vol. VI 1959».

(٢٠) ابن خلدون : التعريف . ص ٣٦٤ ، ابن قاضى شهاب : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٧٩ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٧٩١ ، ٧٩٧ .

De Mignanelli, Ascensus p. 168, Howorth, op. cit., part 111, p. 666.

وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٥٨-١٥٩ .

وزاد من سرعة استعداد برقوق للحرب اكتشافه جواسيس لتيمورلنك فى القاهرة جاءوا الى مصر فى هيئة تجار وأعاجم ، وقد قبض على سبعة منهم (٢١) .

واستشاط تيمورلنك غضبا لقتل سفرائه ، فأرسل الى برقوق رسالة شديدة اللهجة تفيض بالتهديد والانتقام ، وتكرر عليه قتل السفراء ، غير أن برقوق لم يهتز لتلك الرسالة بل رد عليها برسالة أخرى أقوى تعبيرا وأشد تهديدا (٢٢) . وبرغم الأزمة المالية الشديدة التى كانت تعاني منها مصر آنذاك (٢٣) ، فقد خرج السلطان برقوق على رأس جيشه متجها الى دمشق مصطحبا معه أحمد بن أويس . ووصل برقوق وجيشه الى دمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ / فبراير ١٣٩٤م ومنها الى حلب . وفى تلك الظروف عرض السلطان بايزيد العثماني وطقتمش خان القفجاق التحالف مع برقوق لأن الجميع كانوا يشعرون بخطر توسع تيمورلنك وأعماله

(٢١) الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ١ ص ٣٧٨ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٤ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٦٩ ، ابن قاضي شهبه : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٠٦ .

(٢٢) الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ١ ص ٣٧٣ — ٣٨٣ ، ابن قاضي شهبه : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٧١ — ٣٧٣ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٤٩ — ٥٢ ، وانظر أيضا :

De Mignanelli, Ascensus... p. 168—169; S. Lane Poole, A history of Egypt in the Middle ages, p. 332.

(٢٣) كانت تلك الأزمة المالية بسبب تبديد الناصري ومنطاش لأموال الخزانة فى فترة استيلائهما على الحكم ونفى برقوق الى الكرك . وقد اضطر برقوق فى أثناء استعداداته للقاء تيمورلنك الى الاقتراض من التجار مبلغ ملبون درهم . انظر : ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٠ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨١١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٥٥ — ٥٧ وعن الفتن الداخلية فى أثناء تولي منطاش والناصرى الحكم فى مصر انظر : د. سعيد عاشور : العصر المالكي فى مصر والشام ص ١٥٥ — ١٥٧ ،

wiet., Histoire de la Nations Egyptienne, Tome IV, L'Egypte Arabe, pp. 513—518.

البربرية^(٢٤) . ثم تقدمت قوات السلطان برقوق حتى قرب نهر الفرات الذى فصل بين قوات الجانبين ، ونجحت فرقة من المماليك فى عبور الفرات ليلا بعد أن نفخت القرب وجعلتها تحت بطون الخيل ، ثم هاجمت مقدمة جيش تيمورلنك وألحقت بها الهزيمة^(٢٥) . وفى تلك الظروف جاءت الأخبار الى تيمورلنك بهجوم طقتمش خان القفجاق على منطقة الأبواب عند الحدود بين الدولتين ، فأثر تيمورلنك الانسحاب من موافعه على الفرات لمواجهة الخطر العاجل على حدود دولته ، وأجل الانتقام من المماليك الى فترة تالية^(٢٦) . أما أحمد بن أويس فقد جهزه السلطان برقوق وأرسله الى بغداد حيث نجح فى استعادة ملكه وهزيمة الحامية التى تركها تيمورلنك فى المدينة ، ثم أصبح أحمد بن أويس نائباً فى بغداد عن سلطان مصر^(٢٧) ، وبذلك امتد نفوذ السلطان برقوق الى العراق .

(٢٤) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨٠٧-٨٠٨ ، ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٥٢-٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص : ٣٨١-٣٨٢ العيني : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص ٤٥٦-٤٥٧ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والاسلام ص ١٥٩ ،

Grousset, L'Empire des steppes, p. 521.

(٢٥) ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ ، ابن قاضى شهاب : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٠٦-٥٠٧ . وانظر أيضاً :

De Mignonelli, Ascensus . . , p. 168; S. Lane Poole, op. cit., p.332

(٢٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٤٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ .

(٢٧) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨١٤ ، ٨١٧ ، ابن قاضى شهاب : مصدر سابق ج ٣ ص ٥١٦ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص ٤٥٧ . ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٥-٤٧٦ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٥٩ ،

Lucien Bouvat, op. cit., p. 50; Howorth, op. cit; part 111, p. 667; Grousset, L'Empire des steppes, p. 513.

ورحل تيمورلنك عن العراق الى أرمينيا وهو عاقد العزم على العودة الى مهاجمة بلاد الشام متى سنحت له الفرصة بذلك ، غير أن ظروفه الداخلية في ذلك الوقت لم تتح له تحقيق قرغبته ، فقد دخل في حرب ضد خصمه طقتمش خان القفجاق الذي عبر الدربند وهاجم الأراضي الخاضعة لتيمورلنك ، كما اضطر تيمورلنك أيضا الى الزحف شمالا للقيام بحملة في جنوب روسيا وصل فيها الى قرب موسكو مما شغله لمدة عام تقريبا . ومن جهة ثانية نشبت الفتن في فارس في أثناء غيبة تيمورلنك في روسيا ، كما أوقع الجورجيون الهزيمة بابنه ميران شاه ، فعاد تيمورلنك الى فارس لخماد الفتن فيها ، ثم شعر بأنه في حاجة الى إعادة تنظيم دولته والبقاء في عاصمته فترة من الوقت للراحة والاستعداد لحملة جديدة ، فعاد الى سمرقند في عام ١٣٩٩/٥٧٩٩ م (٢٨) .

وبعد أن أتم تيمورلنك استعداداته الحربية فضل الاتجاه الى الهند لاستكمال مشروعه الخاص بإنشاء امبراطورية مغولية كبرى ، وكان السبب الظاهري المعان لحملة تيمورلنك على الهند هو نشر الاسلام والقضاء على الوثنية فيها ومعاقبة ملوك الهند المسلمين على تسامحهم مع الهندوس ، غير أن الواقع الذي أغرق تيمورلنك على القيام بحملته هو تمزق سلطنة دلهي الاسلامية الى دويلات صغيرة لم تعد قادرة على المواجهة ، هذا فضلا عما اشتهر به تيمورلنك من حب ارتكاب المذابح وسفك الدماء للمسلمين وغير المسلمين . وقد أرسل تيمورلنك ابنه بير محمد في عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م على رأس مقدمة الجيش التيموري حيث نجح في الاستيلاء على مولتان Moultan بعد حصار دام قرابة ستة شهور . ثم عبر تيمور مع باقى الجيش نهر السند في أوائل عام ٨٠١ هـ / سبتمبر عام ١٣٩٨ م واجتمع مع قوات ابنه بير محمد وأوقع الجيش التيموري الهزيمة بسلطان دلهي محمود شاه الثالث (١٣٩٢ — ١٤١٢ م)

(28) Browne, op. cit., vol. 111, p. 192; Champdor, A. Famerlan, p. 109-111; Lucien B., op. cit., p. 50; Grousset, L'empire des steppes, p. 512—513.

ووزيره ملو اقبال Mallou IQbal ، كما استولى تيمورلنك على كثير من الأقاليم الهندية الأخرى • وأقيم الدعاء له فى مساجد الهند (٢٩) • وفى تلك الأثناء وصلت الى مسامع تيمورلنك الأخبار عن حدوث اضطرابات شديدة فى فارس فقطع حملته على الهند وعاد الى عاصمته سمرقند فى شعبان سنة ٨٠١ هـ / ابريل ١٣٩٩ م (٣٠) •

تيمورلنك والناصر فرج :

وحدثت تطورات سياسية جديدة فى سلطنة المماليك عجلت بالصدام مع تيمورلنك ، فقد مات السلطان برقوق فى شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية ١٣٩٩ م وخلفه ابنه الناصر فرج الذى كان لا يزال طفلا فى حوالى العاشرة من عمره ، فنشبت الاضطرابات وكثرت الفتن والمؤامرات فى مصر وسوريا حتى استلزم الأمر خروج السلطان الناصر فرج مع جيشه من مصر فى حملة ضد تنم نائب دمشق الثائر (٣١) ، هذا فى الوقت الذى كانت البلاد فى أمس الحاجة الى سلطان قوى يستطيع صد الهجمة البربرية التى كان يعددها تيمورلنك على بلاد الشام ، بل ان السلطان العثمانى بايزيد الذى كان حليفا للظاهر برقوق استغل الظروف السيئة التى كانت تمر بها سلطنة المماليك آنذاك واستولى على ملطية وكانت داخلة ضمن النفوذ المصرى (٣٢) •

(29) Lucien B., op. cit., p. 52; Browne, op. cit., vol, 111 p- 191; Grousset, L'empire des steppes, p. 523—526;

وعن هذه الحملة انظر ايضا :

البدييسى : مصدر سابق ج ٢ ص ٦٧ ،

Spuler, op. cit., p. 107; M. Prawdin, op. cit., pp. 479-484; Grousset, Histoire de L'Asie, Tome 111, Le Monde Mongol, p. 119—120.

(30) Lucien B., op. cit., p. 53; Browne, op. cit., vol- 111, p, 194

(٣١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩٠ — ٢٠٠ ، ابن أباس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٦ ، ٥٧١ — ٥٧٩ ،

(٣٢) ابن الياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٤٧ ،

Wiet, op. cit., pp. 521—524.

وتذرع تيمورلنك بعدة أسباب للقيام بحملته على بلاد الشام ،
فقد قام قرا يوسف التركمانى بحملة على منطقة وان فى أرمينيا سنة
٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م وأسر أحد أقرباء تيمورلنك وهو الأمير أطلمش ، ثم
أرسله الى القاهرة فظل محبوسا بها ، وعندما أرسل تيمورلنك الى الظاهر
برقوق طالبا الافراج عن أطلمش رفض برقوق ذلك الطلب الا اذا أطلق
تيمورلنك من جهته سراح الأمراء المماليك المعتقلين لديه^(٣٣) . وكما سبق
القول فان تيمورلنك بسبب مشاغله لم يستطع مواجهة برقوق . كذلك فان
أحمد بن أويس بعد أن عاد الى عرشه فى بغداد نائبا عن الظاهر برقوق
استغل الثورة التى نشبت ضد ميران شاه بن تيمورلنك فى أذربيجان
والمناطق الأخرى الخاضعة له فى عراقى العرب والعجم ، استغل أحمد بن
أويس هذه الثورة وغزا أذربيجان . وعندما وصلت تلك الأخبار كلها الى
تيمورلنك أدرك أن الوقت قد حان لشن الهجوم الذى طالما فكر فيه على
بلاد الشام والانتقام من المماليك^(٣٤) .

وبدأ تيمورلنك حملته فى أوائل عام ٨٠٣ هـ / أغسطس ١٤٠٠ م
بأن كلف بعض قادته بالزحف على بغداد . ونظرا لسوء ادارة أحمد بن
أويس واسرافه فى قتل عدد كبير من اتباعه فقد نشبت فى تلك الظروف
ثورة ضده فى المدينة أجبرته على الفرار منها لطلب المساعدة من قرا يوسف ،
التركمانى ، هذا فى الوقت الذى كان تيمورلنك قد وصل الى سيواس
على رأس قواته . ولم يجد أحمد بن أويس وقرا التركمانى بعد أن
أدركا خطورة العودة الى بغداد سوى الفرار فى اتجاه الشام ومنها
الى الأناضول حيث طلب أحمد بن أويس اللجوء الى السلطان العثمانى بايزيد

(٣٣) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ١ ص ٥٠٩ - ٥٢٢ . ابن
الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٤٥٣ ، وانظر ايضا : ابن قاضى شنبه .
مصدر سابق ج ٣ ص ٥٧٤ . د . حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٢٩ .

Howorth, op. cit., part 111, p. 667; wiet , op. cit., p. 524.

(34) Lucien B., op. cit., p. 53.

خصم تيمورلنك^(٣٥) * وعندما طلب تيمورلنك من السلطان العثماني تسليمه أحمد بن أويس رفض العاهل العثماني في عبارات لا ترضى شروخ خصمه^(٣٦) ، فأسرهما تيمورلنك في نفسه وأجل انتقامه إلى ما بعد الانتهاء من معركته مع المماليك ، إذ قدر أن المناسب له القضاء أولا على القوة التي قد تهدد مؤخرته في حالة الحرب مع السلطان العثماني ببايزيد^(٣٧) * .

استيلاء تيمورلنك على حلب :

وزحف تيمورلنك من سيواس بعد أن نهبها إلى ملطية فاستولى عليها ثم نزل على بهسنا ثم عينتاب فأحرق ضياعها وقتل معظم سكانها وذلك في المحرم من سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م^(٣٨) ، ومنها اتجه إلى حلب فحضر مخيمه أمام أسوارها في أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أواخر أكتوبر ١٤٠٠ م على رأس جيش ضخم^(٣٩) * وأعلن تيمورلنك أسباب حملته العسكرية

(٣٥) ابن قاضي شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصور حوادث سنة ٨٠٢ هـ ص ١٦٢ ، سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٠ ،
Howorth, op. cit., part 111, p. 668—669; M. Prawdin, op. cit., p. 490—491.

(36) Browne, op. cit., vol. 111, p. 196.

(37) M. Prawdin, op. cit., p. 491.

(٣٨) المقرئزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٢٨ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٦٩—١٧٠ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٧١—٧٢ ، وانظر أيضا :

ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٩ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ف ٢ ص ٥٩٣ ،

Lucien B., op. cit., p. 55.

(٣٩) قدر أحد المؤرخين جيش تيمورلنك بسبعمئة ألف رجل ، وهو تقدير قد تبدو فيه المبالغة انظر :

Champdor, op. cit., p. 170.

ومع ذلك فابن خلدون بعد مقابلته لتيمورلنك في دمشق قدر عدد جيش تيمورلنك بأكثر من ألف ألف رجل : انظر : والترنشل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ترجمة محمد توفيق ، ص ٨٥ .

وأهدافها في رسالة بعث بها من معسكره في بهسنا الى نائب دمشق سودون والى المنايخ والقضاة والأعيان في المدينة قال فيها : « بأنه قدم في عام أول الى العراق يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة ، ثم عاد الى الهند لما بلغه بما ارتكبه من الفساد فأظفروه الله بهم . فبلغه هوت الظاهر فعاد وأوقع بالكرج ، ثم قصد لما بلغه قلة أدب هذا الصبي — ابى يزيد بن عثمان — أن يعرك أذنه ، ففعل بسيواس وغيره من بلاده ما بلغكم . ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة ويذكر اسمه في الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها . وطلب أن يرسل اليه أطمش ليدركه اما بملطية أو حاب أو دمشق ، والا فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم » (٤٠) . غير أن سودون نائب دمشق لم يفرغ لذلك التهديد بل أمر بقتل رسل تيمور لنك (٤١) .

واستعمل تيمور لنك الدهاء والدبلوماسية مع خطواته الحربية ، اذ عمل على بذر بذور الشقاق في صفوف المماليك في الشام . فأرسل سفيرا من قبله الى الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب يعده باستمراره في قيايته ، ويطلب منه في نفس الوقت القبض على سودون نائب دمشق لأنه قتل سفير تيمور لنك الذي توجه اليه من قبل . فلما أخبر دمرداش باقي الأمراء الذين قدموا من سائر أنحاء بلاد الشام . قال سفير تيمور لنك لدمرداش « ان الأمير — أي تيمور لنك — لم يأت البلاد الا بمكاتبتك اليه ،

(٤٠) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣١ ، ابن اباس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٥—٥٩٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٩—٢٢٠ مع اختلاف بسيط في بعض الألفاظ دون المعنى .

(٤١) ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٣ . المعنى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٠، ١٧٣ ،

Hilda, op. cit., p. 223.

وقد اشارت المصادر الفارسية الى خطاب من تيمور لنك كنيه من مله في شهر المحرم من سنة ٨٠٣ هـ الى الناصر فرج ، ينكر فيه قتل الظاهر برقوق للسفراء دون سبب وجبسه أطمش — من رجال بلاط تيمور لنك — أنظر : ص الخطاب وترجمته في : د . حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ص ١٧٢ .

وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب ، وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها» (٤٢) ، فحنق منه دمردأش وأمر بضرب عنقه (٤٣) ، ويبدو أن دمردأش كان يعتقد أن قوات المماليك قادرة على الوقوف في وجه تيمورلنك ومنعه من مواصلة غزو الشام ، وهذا دليل على سوء تقدير أمراء المماليك لقوات تيمورلنك من ناحية ، وعدم ادراكهم لحالة التفكك التي سادت الجيش المملوكي في عهد الناصر فرج من ناحية ثانية ، هذا فضلا عن عجزهم عن كشف أخبار وتحركات تيمورلنك (٤٤) .

وكان دمردأش المحمدي نائب حلب قد استنجد بنواب المدن الشامية الأخرى مثل دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة ، وقد اختلفت آراء هؤلاء في بداية الأمر في كيفية مواجهة تيمورلنك وقتاله داخل مدينة حلب أو خارجها إلى أن استقر أمرهم في نهاية الأمر على الخروج إلى ظاهر المدينة ، وبوجه خاص بعد أن تأخر حضور السلطان الناصر فرج وقواته (٤٥) . وبعد مناوشات من سكان المدينة الذين ركبوا أسوارها خرجت قوات المماليك واشتبكت مع قوات تيمورلنك في قتال عنيف ، غير أن القتال لم يكن متكافئا ، فنجح تيمورلنك في انزال الهزيمة بالمماليك

(٤٢) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، المقریزی : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ،

Wiet, Op. cit., p. 526 ; De Mignanelli, vita Tamerlani p. 211,, Note 1, in «oriens vol. 9,» 1956.

(٤٣) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٦ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤٤) هارولد لامب : تيمورلنك ص ١١٨ .

(٤٥) ابن عربشاه : مصدر سابق ص ٩٥ ، العيني : مصدر سابق جلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص : ١٧٣—١٧٥ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٠—٢٢١ ، المقریزی : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٦ ، وانظر أيضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٣٣ ،

De Mignanelli, vita . ., p. 210.

وانظر القسم الثاني من هذا الكتاب ص ١٠ .

وأخذ يقتبهم الى داخل حلب قتلاً وأسراً ، فضلاً عما هلك من قوات المماليك المفلولة تحت حوافر الخيل (٤٦) .

واقتحمت قوات تيمورلنك مدينة حلب في ١١ ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ / ٢ نوفمبر ١٤٠٢ م وأشعلت فيها النيران ، وظلت أربعة أيام تميث فساداً داخل المدينة ، فقتلت الأطفال جميعاً وأسرت النساء ، وارتكبت الفاحشة ، ثم وضعت السيف في كل السكان دون تمييز حتى امتلأت المساجد والطرقات بالقتلى ، كما أسرت قوات تيمورلنك الأمراء المماليك الذين اجتمعوا بقلعة المدينة ، فأمر تيمورلنك بحبسهم جميعاً (٤٧) ، غير أن دمرداش الحمدي نائب حلب لقي معاملة كريمة من قبل تيمورلنك (٤٨) . وبعد أن تم نهب كنوز المدينة أعملت قوات تيمورلنك معاول الهدم فيها ، ثم أشعلت النيران حتى أصبحت حلب موحشة مظلمة تنعى أطلالها (٤٩) .

(٤٦) العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٤ — ١٧٥ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٤ مخطوط سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٢ — ١٧٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٢—٢٢٣ ، المقرئ : مصدر سابق ج ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٧ . وقد أشار دي ميجنانيلي في روايته الى أن قوات تيمورلنك نظاهرت بالفرار ، وفتحت تغرة لقوات المماليك وسبحت لها بالتوغل داخل خطوطها ، ثم أطفئ جنود تيمورلنك عليهم من كل جانب وتم تدمير الجزء الأكبر من قوات المماليك وأسر الباقي . انظر : القسم الثاني ص ١٠ ،

De Mignaneili, Vita., p. 210.

(٤٧) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٣—٢٢٥ ، المقرئ : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٨ . وانظر أيضاً : د. سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ١٦٠ .

(٤٨) ومن أجل تلك المعاملة اتهم دمرداش بموافقة تيمورلنك في الباطن ، واعتبر خائناً . انظر : ابن هريشاه : مصدر سابق ص ٩٢ ، القسم الثاني ص ١١ ، De Mignaneili vita. ., p. 210-211.

(٤٩) المقرئ : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣—١٠٣٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٤—٢٢٥ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٨—٥٩٩ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٥ ، الخطيب للجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٧٧—٧٨ .

، وغادر تيمورلنك وقواته مدينة حلب بعد أن أقاموا فيها شهرا ، واتجهوا الى
لحمشق ، هذا في الوقت الذي كان ميران شاه بن تيمورلنك قد أستولى
على حماه في ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / ٥ نوفمبر ١٤٠٠ م وفعل فيها
مثلما فعل أبوه في حلب^(٥٠) ، كما أستولى رجال تيمورلنك أيضا على
حمص وبلبك ، وقد عفا تيمورلنك عن حمص احتراماً لقبر خالد بن الوليد ،
في حين نهب بلبك رغم طلب أهلها الصلح والأمان ، ووصلت فرسان
تيمورلنك حتى منطقة ساحل البحر المتوسط حيث نهبت صيدا وبيروت^(٥١) .

واتسم موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك في القاهرة
من أحداث الشام في تلك الفترة بالعجز الشديد والقصور عن الإدراك
المسلم لجسامة الخطر الذي يهدد سلطنة المماليك بأسرها ليس فقط في
بلاد الشام بل في مصر أيضا . ومع أن نواب البلاد الشامية أرسلوا
التحذيرات المتتالية الى القاهرة منذ وصول طلائع قوات تيمورلنك الى
عينتاب^(٥٢) ، فإن السلطان فرج وحاشيته لم يضعوا الخطط الفورية
لمواجهة الغزاة ، بل تشاغل السلطان عن ذلك « بشرب الخمر وسماع
الزمر حتى تمكن تيمورلنك من البلاد ، وعم فيها الفساد »^(٥٣) ، كما أن
أحد الأمراء سعى الى إثارة الفتنة في مثل تلك الظروف الصعبة^(٥٤) ،

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٥-٢٢٦ ، المقرئ : مصدر
سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥ ، ابن أياس : مصدر سابق ج ٢ ص ٦٠٠-٦٠١ .

(51) Hilda op. cit., pp. 226-229 ; Lucien B., Op. cit., p. 56 ;
Champdor, op. cit., pp. 175-178 ; Wiet, op.cit., p. 528, Grousset,
L'empire des steppes, p. 527.

(٥٢) المقرئ : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٢٧-١٠٢٨ ، ابن تغري
بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص
٧٣ ، وانظر أيضا : والتر فשל : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد
توفيق ص ٩٢ تعليق رقم (٥) .

(٥٣) ابن أياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ . وقد وصف السخاوي
الناصر فرج بأنه كان (فتاكاً ظالماً جباراً منهمكاً على الخمر واللذات طامعاً في
أموال الرعايا) . انظر : السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ١٦٨ .
(٥٤) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ .

كذلك فإن السلطان وحاشيته رفضوا دعوة السلطان العثماني بايزيد لاجتماع الكلمة وتكوين حلف ضد تيمورلنك ، بحجة أن السلطان العثماني استغل وفاة الظاهر برقوق واستولى على ملطية وكانت خاضعة لسلطنته المماليك^(٥٥) ، وكان رفض المماليك التحالف مع السلطان العثماني بايزيد قرارا خاطئا لأنه أتاح فرصة ذهبية لتيمورلنك لمواجهة أعدائه كل على حدة ، هذا فضلا عما كان فيه الأمراء المماليك في القاهرة آنذاك من صراع وتنافس ورغبة كل منهم في الوصول الى منصب السلطنة وابعاد غيره عنها بصرف النظر عن صالح الدولة^(٥٦) .

وتكررت تحذيرات نواب الشام واستجادهم بالسلطان فرج ، فاستدعى السلطان الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة في المنحرم سنة ٨٠٣ هـ / أغسطس ١٤٠٠ م للتشاور في جمع الأموال من التجار والاستيلاء على نصف الأوقاف لانفاقها في اعداد القوات العسكرية اللازمة لحرب تيمورلنك ، ولكن القضاة اعترضوا على تلك الاجراءات . وتقرر أخيرا ارسال مبعوث خاص الى بلاد الشام هو الأمير أسنغغا الدوادار لكشف الأخبار وتعبئة قوات الشام^(٥٧) . ومع أن مبعوث السلطان الى بلاد الشام أيد في تقاريره أنباء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام ،

(٥٥) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٧—٢١٨ ،

Hilda, op cit., p. 224.

(٥٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٧—٢١٨ .

(٥٧) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ ، ويصف الموقف السياسي في القاهرة بقوله : « ووقع التخويل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء » .

وانظر أيضا : المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٢٩ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٠—١٧١ ، ابن قاضي شنبه : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصور سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧١ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١٠ ق ٢ ص ٥٩٢ — ٥٩٤ ، والتر مئيل : لقاء ابن خلدون ص ٩١—٩٢ تعليق رقم (٥) ،

Wiet, op. cit., p. 526.

وورود الأخبار الى القاهرة فى أواخر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / نوفمبر ١٤٠٠ م باستيلاء تيمورلنك على حلب ، الا أن السلطات الحاكمة فى مصر لم تتخذ اجراءات التعبئة العسكرية الفورية بل حاولت التوصل من المسئولية بتكذيب تلك الأخبار والقبض على مروجها ليعاقب على افتراءه . وكان موقف رجال الدين فى مصر على عكس ذلك تماما ، اذ طاف شبخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى مع القضاة فى شوارع القاهرة ونادوا فى الناس بالجهاد فى سبيل الله ضد العدو الذى أخذ البلاد وقتل الأطفال على صدور الأمهات وخرب الدور والمساجد^(٥٨) ، فاشتد حزن الناس واتهموا السلطان والأمراء بالتقصير فى الدفاع عن الدولة^(٥٩) .

وعاد مبعوث السلطان الناصر فرج من مهمته فى بلاد انسام الى قلعة الجبل فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ وقدم تقريراً الى السلطان باستيلاء تيمورلنك على حلب وقلعتها بالتواطؤ مع نائبها الأمير دمرداش^(٦٠) ، وفى ذلك الوقت فقط شعر الناصر فرج بخطورة الموقف ، واستعد للحرب وأصدر أوامره لأمرائه بتعبئة قواتهم ، وعرض أجناد الحلقة وجمع الخيول والجمال ، وطلب العربان من الوجهين القبلى والبحرى للاشتراك فى قتال تيمورلنك . ثم تحرك السلطان بقواته فى الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٤٠٠ م ، أى أنه أضاع من الوقت حوالى ثلاثة أشهر دون أن يقوم بأى عمل جاد منذ بدء

(٥٨) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ابن تهاى شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط حواشي سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٥ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ .

(٥٩) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٩ .

(٦٠) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٩ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٢ .

هجوم تيمورلنك على بلاد الشام^(٦١) . ويضاف الى ذلك اختلاف الأمراء على السلطان وعجزه عن وضع خطة عسكرية ناجحة للدفاع عن الدولة . وقد اقترح الأمير تغرى بردى أن يذهب بنفسه الى دمشق لتحصينها والدفاع عنها ضد تيمورلنك ، على أن يظل السلطان الناصر في معسكره بغزة يمدّه بالقوات دفعة بعد أخرى ، فاذا واصل تيمورلنك رحفه الى مصر وقع بين قوات دمشق التي يقودها تغرى بردى وبين قوات السلطان الناصر فرج في غزة ، غير أن باقي الأمراء اعترضوا على تلك الخطة وشككوا في اخلاص الأمير تغرى بردى للسلطان ، بل وذكروا للسلطان أن الأمير تغرى بردى قد يتفق مع تيمورلنك عليه^(٦٢) .

وكان تيمورلنك قد أرسل سفراءه الى القاهرة في أثناء حصاره مدينة حلب متظاهرا بطلب السلام وعقد الهدنة مع الناصر فرج ، غير أن هدف تيمورلنك الحقيقي كان التجسس على أحوال السلطان وبذر بذور الشقاق بين أمراء المماليك في مصر ، فقد عرض سفراء تيمورلنك شروطا مهينة على السلطان هي : أن تحمل العملات الذهبية التي تسك في أراضي السلطان فرج اسم تيمورلنك ، وأن يدفع السلطان مبلغا كبيرا من المال ، وأن تقام الخطبة في المساجد باسم تيمورلنك . ويبدو أن السلطان وحاشيته قد رفضوا تلك الشروط ، فعادت السفارة بعد مفاوضات استمرت حوالي شهرين (صفر وربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أكتوبر ونوفمبر ١٤٠٠م)

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، المقيري : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٢٧ حواشي سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٩ ، وانظر أيضا : والتر غشل : لقاء ابن خلدون ص ٩٣ تعليق رقم (٥) ،

Wiet., op. cit., p. 529.

(٦٢) ابن تغرى بردى : النجوم . ج ٠٠ ص ١٢ ج ١٢ ص ٢٣١—٢٣٢ . الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨١ .

وهي تحمل رد السلطان الناصر فرج ومعها أيضا تقرير عن نشاطها في التجسس في القاهرة واستعدادات الناصر فرج للحرب^(٦٣) .

(63) De Mignanelli, vita... , p. 212-213, 214;

القسم الثاني ص ١٤ ، ١٧ .
وانظر أيضا :

Piloti, l'Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle, p. 120 ;

ويبدو أن تلك السفارة هي التي أشار إليها كلاجو السفر الاسباني الى تيمورلنك أنظر :

Clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406, p. 43.

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تتحدث عن وصول مثل تلك السفارة الى القاهرة في ذلك الوقت ، بل أشارت الى أن طلب الصلح جاء الى السلطان فرج بعد وصوله الى دمشق في جمادى الأولى ٨٠٣ هـ . أما المصادر الفارسية فانها ذكرت كتاب تيمورلنك الى السلطان فرج في جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ يطلب فيه ارسال اطمش وضرب السكة واقامة الخطبة باسم تيمورلنك ولقبه والا فانه سيستولى على الديار . كما أوردت المصادر الفارسية أيضا — شرف الدين على يزدي في كتابه ظفرنامه — رد الناصر فرج على الخطاب وتذكر استجابته لطلبات تيمورلنك اعلى النحو التالي « نحن مبيد في مقام الطاعة والانقياد ، وسنرسل اطمش في خلال خمسة أيام ، فإذا تجاوز السلطان الاعظم عن جرائمنا ماننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وأطاعة الأوامر وإظهار الخضوع وسنعمل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لارضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » أنظر : د . حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧٣ — ١٧٥ .

غير أن تطور الأحداث التاريخية لا تؤيد ما ورد في المصادر الفارسية لأن الناصر فرج عبأ جيشه وذهب الى الشام لمحاربة تيمورلنك ، كما لم يفرج للناصر فرج عن اطمش الا عام ٨٠٥ هـ وبعد انتصار تيمورلنك على السلطان العثماني بايزيد . أنظر : الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٩ حوادث سنة ٨٠٥ هـ .

استيلاء تيمورلنك على دمشق وتخريبها :

وواصل تيمورلنك زحفه على دمشق وأرسل الى نائب العيبة بها يدعوهُ للاستسلام فاضطرب السكان وبوجه خاص بعد سماع قصص التعذيب والتفكيك التي أذاعها الهاربون من المناطق التي استولى عليها تيمورلنك ، وفي تلك الظروف وصل الناصر فرج الى دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠ م ، وضرب مخيمه عند قبة يلبغا بظاهر المدينة وأخذ في الاستعداد لمواجهة تيمورلنك الذي أقام معسكره على قبة السيار غربى قبة يلبغا بحوالى الميلىن وأخذ في مراقبة الناصر فرج^(٦٤) . وأسفرت المناوشات الأولى بين الجانبين عن هزيمة كبيرة لمقدمة جيش تيمورلنك ، الا أنه نصب كمينا لقوات الناصر فرج أسفر عن مقتل عدد كبير منها ، ومع ذلك فلم يتمكن تيمورلنك في ذلك الوقت من اقتحام مدينة دمشق^(٦٥) . واستخدم تيمورلنك أساليب الدماء والشائعات للتهويه على الناصر فرج وقواته ، فأشاع خمسة من جواسيسه الذين وصلوا طرابلس بأن نصف جيش تيمورلنك عازم على الدخول في طاعة السلطان فرج ، وأن ملك قبرس سيقدم المساعدة للسلطان . كما

(٦٤) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٧ ، ٢٣٢-٢٣٣ ، المتربى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٠-١٠٤١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، والتر فاشل : لقاء ابن خلدون ص ٧٠ ، ص ١٠٠ تعليق رقم (١٩) ،

Wiet, op. cit., p. 529.

(65) De Mignanelli, Vita., p. 215-216.

والصادر العربية مختلفة في تحديد التواريخ الدقيقة لهذه المعارك ، ويرجع ذلك الى الاختلاف بين تاريخ وقوع المعركة وبين تاريخ وصول الخبر الى القاهرة ، ويمكن القطع بدعواها خلال شهر جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / أواخر ديسمبر وأوائل يناير ١٤٠١ م ، ويشير دي ميجنانللى De Mignanelli الى وقوع معركة بين الجانبين في يناير سنة ١٤٠١ م . انظر المصادر العربية التالية : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٣-٢٣٥ ، المتربى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤١-١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ ، المعنى : مصدر سابق مجلد ٢٧ ص ١٨١ ، ابن قاضى شهبه : مصدر سابق مخطوط مصور ج ٤ ص ١٧٦ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨٢-٨٣ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ١٩ ، ٢٠ .

أشاع تيمورلنك بأنه راحل عن دمشق ، بل ان ابن أخته جاء الى معسكر السلطان فرج وأدعى أنه اختلف مع خاله ، وأن أمر تيمورلنك في القتلى (٦٦) .

ويبدو أن تيمورلنك أدرك بدهائه وعن طريق جواسيسه أيضا اختلاف الأمراء المماليك على السلطان الناصر فرج فأراد توسيع شقة ذلك الخلاف ، فأرسل الى السلطان طالبا الصلح على أن يطلق الناصر فرج سراح الأمير أظلمش مقابل الافراج عن الأمراء المماليك المقبوض عليهم في معركة حلب (٦٧) . وصح ما توقعه تيمورلنك اذ دب الانقسام في صفوف قوات الناصر فرج ، اذ رأى فريق مواصلة القتال ، وقد ظن ذلك الفريق أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم (٦٨) ، في حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب تيمورلنك ووقف القتال (٦٩) . ونتيجة لذلك الانقسام في الرأي فان فريقا ثالثا قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة الناصر فرج ، وبادر ذلك الفريق بالاختفاء من المعركة (٧٠) . ثم أشبع في دمشق أن الأمراء الهاربين قد توجهوا الى مصر اكي يسلطنوا الأمير لاجين الجركسي ، فأسرع السلطان وباقي الأمراء بمغادرة دمشق في الحادي

(٦٦) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٤ ، ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١٠٤-١٠٥ ، العبنى ، مصدر سابق مجلد ٢٧ ص ١٨١ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨٢ ،

Wiet, op. cit., p. 529.

(٦٧) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨٢ .

(٦٨) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ .

(٦٩) ومن هؤلاء الأمير تغرى بردى ، انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٥ .

(٧٠) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١٠٤-١٠٥ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ٧ يناير ١٤٠١ م لتدارك الأمر في القاهرة ، وتركوا دمشق بلا قيادة تنظم أمورها أو قوات تدافع عنها (٧١) . وقد نهبت العشائر قوات المماليك في أثناء انسحابها الى مصر وسلبوا ما معهم من أموال وأسلحة وأمتعة (٧٢) .

وواجه سكان دمشق بعد رحيل الناصر وقواته موقفا حرجيا ، فأغلقوا أبواب المدينة ، وتسلقوا أسوارها ونادوا بالجهاد ، بل ونجحوا في صد هجوم لقوات تيمورلنك عليها . وأدرك تيمورلنك أن أعمال الحيلة أجدي له في الاستيلاء على المدينة من محاولة اقتحامها ، فقد كان عرضه دخول دمشق بأقل خسائر ممكنة . ومن أجل ذلك أرسل تيمورلنك رجلين من أتباعه يعرضان على سكان دمشق قبول الصلح (٧٣) . وبعد مناقشات وخلافات بين زعماء المدينة وافق هؤلاء على إرسال القاضي ابن مفلح الحنبلي الى تيمورلنك من أجل المفاوضة على شروط التسليم ، واستعمل تيمورلنك أسلوب الخداع مع القاضي ابن مفلح ، اذ وعده بالانسحاب بعد تقديم سكان دمشق « الطقيزات » أي الهدايا وفقا لعادات

(٧١) القرينى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، ابن نفري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٦—٢٣٧ ، ج ١٣ ص ١٥٨ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن خلدون : النعريف ص ٣٦٧ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٣ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٧ ،

Champdor, op. cit., p. 183.

(٧٢) ابن نفري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٧—٢٣٨ ، القرينى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤—١٨٥ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ ،

De Mignanelli, Vita.. , p. 217.

القسم الثانى ص ٢٢ ،

(٧٣) القرينى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن نفري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ ، ابن حجر العسقلانى مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ .

المغول^(٧٥) . وكان مما قاله تيمورلنك للقاضي ابن مفلح « هذه بلد الأنبياء وقد أعنتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عن أولادى »^(٧٥) ، غير أن نائب قلعة دمشق لم يوافق على شروط تيمورلنك وصمم على القتال ، وأغلق أبواب المدينة حتى اضطر القاضي ابن مفلح ووفد من أعيان المدينة الى الغزول فيما بعد من على الأسوار^(٧٦) . وأمعنا فى الخديعة منح تيمورلنك أهالى دمشق أمانا سريطة أن يدفعوا له مبلغ مئوبون دينار . وقد عهد الى موظفين من أعيان دمشق وقضاتها بجمع الأموال المطلوبة ، وطلب فتح أبواب المدينة ، وعين نائبا عنه فى حكم دمشق^(٧٧) . وقد انطلت خدعة تيمورلنك على القضاة والأعيان ، فراحوا يروجون الأخبار عن محاسنه وتقواه . وحشوا الناس على جمع الأموال^(٧٨) ، وذكروا عنه أنه زار قبر أم حبيبة احدى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال « : يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة عليه ؟ فأنا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ، وذكروا عنه أيضا « أنه

(٧٤) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٧٥) ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ . وللمريد من المعلومات عن القاضي ابن مفلح انظر : ابن طولون : « النفر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام » ص ٢٨٨—٢٨٩ .

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

(٧٧) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠—٢٤١ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١—٦١٢ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ .

وتد أشار دى ميجنانللى الى ان تيمورلنك طلب من القضاة دفع مبلغ مئوبون وستمائة الف دراخمة قدرها دى ميجنانللى بما يعادل ثمانمائة الف من اللوكات الابطالية فى . عصره انظر : القسم الثانى ص ٢٩ ،
De Mignanelli, vita., p. 221.

(٧٨) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ .

كان في مجلسه يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال في يده » (٧٩) . وفي ذلك الوقت عندما كان تيمورلنك في معسكره خارج المدينة التقى به المؤرخ المشهور ابن خلدون وأجرى معه مناقشات في كثير من الموضوعات التاريخية والدينية ، وتشفع ابن خلدون لدى تيمورلنك في بعض مواطني دمشق ، فأجابته تيمورلنك الى طلبه (٨٠) .

وجمع القضاة والأعيان المبلغ الذي طلبه تيمورلنك ، لكنه لم يقتنع به ، وألقى القبض عليهم وحبسهم حتى التزموا بجمع مبالغ عشرة ملايين دينار ذهباً ، ثم أصدر أوامره لقواته بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت بعد قتال شديد استمر تسعة وعشرين يوماً رغم قلة عدد المقاتلين فيها (٨١) . ومرة أخرى رفض تيمورلنك المبلغ الذي جمعه القضاة والأعيان بمسقة زائدة من سكان دمشق ومن أوقاف المساجد والمدارس والمساهد والربط والزوايا وبلغ عشرة ملايين ديناراً ذهباً ، وذلك بحجة اختلاف العملة وفسادها ، وقدر ذلك المبلغ بثلاثة ملايين فقط . كما صادر أموال وممتلكات الفاصر فرج والقوات المصرية بأسرها من أسلحة ودواب ، كما استولى على أموال كل من هرب من سكان دمشق (٨٢) . وألزم تيمورلنك القضاة والأعيان بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاتها ، كما قام مندوبون عنه

(٧٩) ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١ .

(٨٠) للمزيد من التفاصيل من ذلك اللقاء انظر : ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٨—٣٧٤ ، والتر فשל : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد بوفيت .
(٨١) ابن نفري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٢—٢٤٣ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٢ ، ابن حجر مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ .

(٨٢) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن نفري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٣ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٣—٦١٤ .
وانظر أيضاً : القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٢٤ ، ٢٩—٣٠ ،
De Mignanelli, Vita .., p. 221-223.

بإثبات البضائع والأموال التي لدى التجار في قوائم جرد^(٨٣) . ويعد أن وزع أحياء المدينة على أمرائه أطلقهم داخلها بأتباعهم وحواسبيهم فعاثوا فيها فسادا وطلبوا لأنفسهم أموالا ضخمة ، ولما عجز السكان عن السداد أنزل جنود تيمورلنك بهم أقسى أنواع العقوبات من الضرب والعصر والحرق وارتكاب الفاحشة . ثم دخل بعض هؤلاء الأمراء وأتباعهم الى المدينة وسيوفهم مسلولة مشهورة فمارسوا النهب والسبي قدر استطاعتهم . وأخيرا أضرموا النار في المنازل والمساجد لا سيما جامع بنى أمية الذي تهدمت سقفه وحوائطه ، وهلك معظم سكان المدينة الذين كان يقدر عددهم آنذاك بمائة ألف مواطن^(٨٤) ، وقد شاهد الرحالة الأوروبي بروكيير Brocquiere الذي زار دمشق بعد ثلاثين سنة من هجوم تيمورلنك عليها ، شاهد آثار التدمير في قلعة المدينة ، كما أن أحد أحيائها كان لا يزال متهدما لم يتم بناؤه بعد . أما الحى المسيحي في شرقى دمشق فكان الحى الوحيد الذى لم تمتد اليه يد التخريب^(٨٥) .

وأخيرا غادر تيمورلنك مدينة دمشق يوم السبت الثالث من شهر شعبان سنة ٨٠٣ هـ / ١٩ مارس ١٤٠١ م مصطحبا معه فى عودته كل الحرفيين والعمال المهرة الذين حففت بهم دمشق بعد أن قبض عليهم ، وبذلك فقدت دمشق قدرتها الصناعية والاقتصادية لفترة طويلة ، ومما

(٨٣) المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠ ، ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٤ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، وانظر أيضا :

ابن عريشاه : مصدر سابق ص ١٠٩ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٢٦ ،

De Mignanelli, Vita..., p. 220.

(٨٤) ابن عريشاه : مصدر سابق ص ١١٦-١١٧ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٤ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٣٥ ،

De Mignanelli, Vita..., p. 226.

(85) Thomas Wright, early Travels, p. 294, The travels of B. de la Brocquiere, A.D. 1432-1433.

يدل على حجم تلك الخسارة أن أحد الحجاج الغربيين عندما زار دمشق مع بعض رفقاءه في خلال القرن الخامس عشر الميلادي من أجل شراء حرير سورى قيل له أن الحرير الموجود مستورد من البندقية^(٨٦) .

أما الساطان الناصر فرج فقد شرع بعد عودته الى القاهرة في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٣ هـ / يناير ١٤٠١ م في تجهيز قوات جديدة لارسالها الى دمشق ، ومن أجل ذلك أذن الناصر فرج للأمير يلغا السالمى في جمع الأموال المطلوبة ، فتعسف يلغا في ذلك تعسفا شديدا حتى فرض على سائر أراضى مصر المقطوعة للسلطان والأمراء والأجناد عن عبرة كل ألف دينار خمسمائة درهم فضة ، كما أخذ من سائر أراضى البر والصدقة عن كل فدان عشرة دراهم ، كما جبي من أصحاب العقارات في القاهرة أجرة شهر ، هذا فضلا عن المصادرات التى تمت للفنادق والحواصل^(٨٧) . وكان الناصر فرج يتوقع معركة جديدة مع تيمورلنك ، فلم يتوقف عن الاستعدادات الحربية . وعلى الرغم من معارضة بعض الأمراء للناصر فرج مثل الأمير جكم ، فإن الناصر كان على وشك ارسال جيشه مرة أخرى الى الشام لولا وصول الأمير شيخ الحمودى نائب

(٨٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٤—٢٤٥ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠—١٠٥١ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ و ٢ ص ٦١٤—٦١٧ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٤١ ،

De Mignanelli, vita., p. 229 ; Champdor, op. cit., p. 123;

Lucien Bouvat, op. cit., p. 57 ; Helda, op. cit., p. 235.

وانظر ايضا اشارة كلافتجو عن هجوم بيمورلنك على دمشق ونقل الحرفيين منها الى سمرقند في .

Clavijo, op. cit , p. 134 ;

د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٦١ .

(٨٧) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٦—٢٤٨ ، المقرئى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٢ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٩ .

طرابلس هاربا من أسر تيمورلنك وأبلغ عن رحيله من دمشق ، فأبطل
الناصر فرج أمر السفر (٨٨) .

وقد غادر تيمورلنك دمشق للتحضير لصدام كبير مع
السلطان العثماني بايزيد ، ثم استطاع تيمورلنك أن يلحق بخصمه الكبير
هزيمة ساحقة وأسر في معركة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م أرسل
بعدها الى الناصر فرج طالبا الافراج عن الأمير أطلمش ، فكان طبيعيا
أن يستجيب الناصر هذه المرة اطلب تيمورلنك الذي أصبح أكبر قوة
عسكرية في غربى آسيا ، فخلع الناصر فرج على أطلمش وجهزه وأعاد
الى بلاده (٨٩) ، ثم تلى ذلك وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م فتخلست
بذلك دولة المماليك من عدو خطير أوشك على الاحاطة بها .

(٨٨) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٥٢ ، المقرئى : مصدر
سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٢٣ .

(٨٩) الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٩ ،

Hilda, op. cit., p. 238-239.

وقد أشار كلا فجو السفير الاسباني الى تيمورلنك الى سفاره من الناصر
فرج الى تيمورلنك تقابلت مع السفير الاسباني في مدينة خوى khoy
وكانت هذه السفارة تتكون من عشرين فارسا وخمسين جملا ، وتحمل هدايا
أرسلها الناصر فرج الى تيمورلنك تشتمل على ست من النعام Six Ostriches ،
وزرافة أنظر :

Clavijo, op. cit., p. 149.

خاتمة

ان دراسة حملة تيمورلنك على بلاد الشام فى أوائل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى قد أظهرت عدة حقائق تاريخية نوجزها فيما يلى :

١ - أوضحت الدراسة كيف تمكن تيمورلنك من الاستيلاء على السلطة فى اقليم ما وراء النهر ثم نجاحه فى القضاء على الدويلات المستقلة فى غربى آسيا التى نشأت على انقاض دولة مغول فارس ، ومن ثم شرع تيمورلنك فى تأسيس امبراطورية مغولية كبيرة سارت على نفس سياسة الامبراطورية المغولية التى أسسها جنكيزخان من قبل ، وهى السياسة العنصرية القائمة على الفتح والتوسع واخضاع الدول وارهاب الشعوب ، بل ومحاولة السيطرة على العالم .

٢ - أوضحت الدراسة أيضا السبب المباشر لتوتر العلاقات بين تيمورلنك والسلطان المملوكى الظاهر برقوق وهو هروب السلطان الجلائرى أحمد بن أوبس الى مصر ورفض الظاهر برقوق تسليمه الى تيمورلنك . كما كشفت الدراسة أيضا عن السبب الحقيقى لعداء تيمورلنك لسلطنة المماليك ، وهو رغبة تيمورلنك فى اخضاع هذه السلطنة لنفسه بل وضمها الى امبراطوريته ، ويتضح ذلك من طلباته الى المماليك باقامة الخطبة باسمه ونقش اسمه على السكة .

٣ - أوضحت الدراسة أيضا مقدرة الظاهر برقوق فى ادارة الصراع السياسى والعسكرى مع تيمورلنك ، ويتمثل الجانب السياسى فى العلاقات الوثيقة التى أقامها الظاهر برقوق مع كل من السلطان العثمانى بايزيد وطقتمش خان القفجاق ، وقد خشى تيمورلنك بالفعل من ذلك التحالف الثلاثى ، فلم يجرؤ على عبور الفرات ومهاجمة بلاد الشام سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م رغم هزيمة مقدمة جيشه على يد المماليك .

٤ — أوضحت الدراسة أيضا ضعف شخصية الناصر فرج بن برقوق وسيطرة الأمراء عليه وعجزه العسكرى عن ادارة الحرب ضد تيمورلنك. بل وعجزه السياسى فى رفضه التحالف مع السلطان العثمانى بايزيد. مما مكن تيمورلنك من مواجهة كل فريق على حدة وأنزل به الهزيمة .

٥ — أوضحت الدراسة أيضا أسلوب تيمورلنك فى الخداع وحبه الشديد للتدمير والخراب وابتزاز الأموال وسفك الدماء ، ويتبين ذلك من استيلاء تيمورلنك على حلب ودمشق سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م — ١٤٠١ م ، وكيف تدهورت هاتان المدينتان من الناحية الاقتصادية نتيجة للنخرب الذى لحق بهما .

المصادر والمراجع

(١) المصادر العربية والفارسية المعربة

- ١ — ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٩٣٠ هـ
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الجزء الأول القسم الثانى ،
تحقيق محمد مصطفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٢ — ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ، نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب ، وج ١٣ تحقيق فهد محمد شلتوت ، الهيئة
المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٣ — ————— :
الدليل الشافى على المنهل الصافى . ج ١ ، ج ٢ تحقيق فهد
محمد شلتوت — جامعة أم القرى ١٩٨٣ م .
- ٤ — ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢ هـ
أنباء الغمر بأبناء العمر — ثلاثة أجزاء ، تحقيق د . حسن حبشى .
لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٦ م .
- ٥ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى
١٩٨٣ م .
- ٦ — ————— :
التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، نشرها محمد بن ناويت
الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ م .

- ٧ — ابن طولون : شمس الدين محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ
الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام • جزء فى مجلد •
تحقيق د • صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م •
- ٨ — ابن عريشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد
كتاب عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، الطبعة الأولى ، مطبعة
وادی النيل بالقاهرة ، ١٢٨٥ هـ •
- ٩ — ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب • ٨ أجزاء فى أربع مجلدات
طبعة بيروت ، المكتب التجارى للطبع والنشر والتوزيع •
- ١٠ — ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ
تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك مجلد ٩ ج ٢ ،
تحقيق د • قسطنطين زريق ، د • نجلا عز الدين • بيروت ١٩٣٨ م
- ١١ — ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ
تاريخ ابن قاضى شهبة : المطبوع ج ٣ تحقيق عدنان درويش —
دمشق ١٩٧٧ م ، المخطوط : أربعة مجلدات برقم ٢٤٠٢ تاريخ
تيمور — دار الكتب بالقاهرة •
- ١٢ — البدييسى : شرف خان • بعد سنة ١٠٠٥ هـ •
شرفنامه ج ٢ ، تعريب محمد على عونى ومراجعة يحيى الخشاب ،
طبع عيسى البابى الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٩٦٢ م •

١٣ — الخطيب الجوهري : على بن داود الصيرفي • ت ٩٠٠ هـ
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان • ثلاثة أجزاء • تحقيق
د • حسن حبشي • مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م •

١٤ — خواندمير : غياث الدين ت ٩٤٢ هـ
دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق د • حربي أمين سليمان ، (ضمن
كتاب : المؤرخ الايراني الكبير غياث الدين كما يبدو في كتابه
دستور الوزراء) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م •

١٥ — السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع • ١٢ جزء منشورات دار مكتبة
الحياة ، بيروت ١٩٦٦ م •

١٦ — العيني : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة
رقم ٨٢٠٣ ح مجلد ٢٦ ، ٢٧ •

١٧ — المقرئزي : تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك • ج ٣ في ثلاثة أقسام تحقيق
د • سعيد عبد الفتاح عاشور • دار الكتب ١٩٧٠ — ١٩٧١ م
القاهرة •

(ب) المراجع العربية الحديثة والمترجمة

١ — بارتولد :

تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، تعريب د • أحمد السعيد سليمان
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م •

٢ — حكيم أمين عبد السيد :

قيام دولة المماليك النانية • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ م •

٣ — د • سعيد عبد الفتاح عاشور :

العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى — دار النهضة
العربية بالقاهرة ١٩٦٥ م

٤ — فصيل :

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد توفيق — منشورات
دار مكتبة الحياة ، بيروت •

٥ — لى ستريبنج :

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد
مطبعة الرابطة — بغداد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م •

٦ — هارولد لامب :

تيمورلنك — ترجمة عمر أبو النصر — بيروت ١٩٣٤ م •

(ج) المراجع الأجنبية

1. Alessandro Bousani,

The Persians from the Earliest days to the twentieth century,
translated from the Italian By : J.B Donne, London 1971.

2. Aubin, J.,

Tamerlan à Bagdad, in «Arabica IX 1962.

3. **Barthold,**
Four studies on the history of Central Asia Leiden 1958.
4. **Browne,**
A literary history of Persia, Vol. 111, The tartar dominion,
1265-1502, Cambridge University Press 1951.
5. Cambridge History of Iran, Vol. 5, the Seljug and Mongol Periods
edited by J.A. Boyle The University Press, 1968.
6. **Champdor, A.,**
Tamerlan, Paris 1942.
7. **Clavijo, Gonzales,**
Embassy to Tamerlane 1403—1406, translated from the
spanish by : Guy LeStrange, London 1928.
8. **De Mignanelli,**
Vita Tamerlani, Translated into English with an Introduction
and a Commentary by : Walter J. fischel, in «Oriens, vol. 9. 1956».
9. _____
Ascensus Barcoch, Rendered into English with an Introduc-
tion and a commentary by : Walter J. fischel, in «Arabica Tome
VI, 1959.
10. **Desmaisons, P.**
Histoire des Mongols et des Tatares Par Aboul Ghazi Be-
hadour Khan, Amsterdam 1970.
11. **Grousset, R.,**
L'Empire des steppes, Paris 1948.
12. _____
Histoire de l'Asie, Part 111, Le Monde Mongol, Paris, 1922.

13. Hilda, H.,

Tamburlaine, The Conqueror, London 1962.

14. Howorth

History of the Mongols, Part 111, The Mongols of Persia,
London 1888.

15. Lane Pool, S.,

A history of Egypt in the Middle ages, London 1936.

16. Lucien Bouvat,

L'Empire Mongole, Paris 1927.

17. Phillips, E.,

The Mongols, London 1969.

18. Piloti, E.,

L'Egypte au Commencement du Quinzieme Siècle, Le Caire
1950.

19. Prawdin, M.

The Mongol empire, its rise and Legacy London 1907.

20. Scharzberg, J.E.

A Historical Atlas of South Asia.

21. Spuler, B.

Les Mongols dans l'histoire, Paris 1961.

22. Sykes, P.,

A history of Persia Vol. I, II, London, 1969

23. Thomas Wright,

Early travels in Palestine, the travels of B. de la Brocquiere.

24. Wiet, G.,

Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV, l'Egypte Arabe.

القسم الثاني

ترجمة مقال دي ميچناتلي

عن

حياة تيمورلنك

VITA TAMERLANI

مقدمة

برتراندو دى ميچنانللى : B. de Mignanelli

تاجر ايطالى من سينا Siena ، ولد حوالى سنة ١٣٧٠ م فى أسرة من طبقة النبلاء ، وغادر ايطاليا فى شبابه ، وتجول كثيرا فى بلاد الشرق الأدنى حتى استقر به المقام فى دمشق حيث أصبح من رجال الأعمال والأثرياء فيها ، وكما قال هو عن نفسه : « وجدت هناك الثروة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة » . وتعلم دى ميچنانللى خلال اقامته فى دمشق اللغة العربية على نحو طيب ، فتمكن من العمل بالترجمة التحريرية والشفوية للظاهر برقوق عند وصول يعقوب دى كروز Jacob de Croze سفير ادوق ميلان جيوفانى جاليزو Giovanni Galeazzo . وكان السفير قد حمل رسالة من الدوق يطلب بمقتضاها الاذن من السلطان برقوق لاصلاح الباسيليكا فى بيت لحم بفلسطين ، كما يطلب حماية الآباء فى جبيل صهيون . وقد ترجم دى ميچنانللى خطابات الدوق الى اللغة العربية . ورد السلطان عليها الى اللغة اللاتينية . ويبدو أن دى ميچنانللى كان ملما أيضا باللغة العبرية^(١) .

وكان دى ميچنانللى يقضى شتاء عام ١٤٠٠ م — ١٤٠١ م فى القدس عندما سمع عن حملة تيمورلنك على بلاد الشام وتدميره مدينة دمشق . وقد لحق دى ميچنانللى بجيش الناصر فرج الهارب من ميدان المعركة الى مصر ، ثم عاد دى ميچنانللى مرة أخرى الى دمشق عن طريق

(1) De Mignanelli, Vita Tamerlani, p. 209, 228 ; Walter fischel, Introduction to Vita Tamerlani, p 206-207, in « Oriens » Vol. 9, 1956.

قبرس في خريف عام ١٤٠٢ م ، فشاهد التخريب الذي قام به تيمورلنك في المدينة قبل مغادرته لها . وبعد رحيل دي ميغانللي عن الأراضي المملوكية وعودته الى مسقط رأسه في سينا قضى بعض الوقت في مدينة قنسطانز بألمانيا ، وفي عام ١٤١٦ م كتب دي ميغانللي بناء على طلب أصدقائه مقالتين : احدهما بعنوان : « حياة تاملان » Vita Tamerlani أو « خراب دمشق » Ruina Damasci ، والأخرى بعنوان « صعود برقوق » Ascensus Barcoch ، وهي ترجمة مفصلة لسيرة السلطان برقوق (٢) .

ونظرا لأن دي ميغانللي كان معاصرا للفترة التاريخية التي كتب عنها ، كما عمل مترجما للظاهر برقوق ، وسمع بالتفصيل عن هجوم تيمورلنك على بلاد الشام في عهد الناصر فرج بن برقوق ، بن وشاهد بنفسه آثار تدمير دمشق ، فإن لكتاباته أهمية بالغة ، وتعتبر روايته عن تلك الأحداث رواية شاهد عيان ، وتمدنا المقالتان بمعلومات مفيدة وقيمة

(2) De Mignanelli, Vita..., P. 209 ;

Ascensus Barcoch, p. 61-62, in « Arabica » Vol. 6 (1959.)

ومن الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن تيورلنك السفير الأسباني جونزيل دي كلاڤجو Gonzales de Clavijo الذي أرسله هنري الثالث ملك قشتالة وليون الى بلاط تيمورلنك في سمرقند . غير أن ما كتبه كلاڤجو عن حصار دمشق وتدميرها لا يتعدى اشارات قليلة لأنه لم يزر سوريا مطلقا . كذلك كتب ابمانويل بيلوتي الذي امتدت انشطته التجارية الى كل المراكز النجارية في شرق البحر المتوسط ، ألا أن ما دونه بيلوتي عن دمشق لا يتعدى فقرة باللغة القصر . كذلك كتب القس الدومنيكاني جان Jean وكان استغا لمدينة السلطانية وعمل سفيراً لتيورلنك الى بلاط شارل الثاني ملك فرنسا عام ١٤٠٣ م ، كما كتب أيضا الرحالة والمفسر البافاري شيلنبرجر J. Schiltberger الذي عمل تحت إمرة السلطان العثماني بايزيد ثم أسره تيمورلنك وظل مرافقا له من عام ١٤٠٢ م الى ١٤٠٥ م . وقد أعطى شيلنبرجر اشارات عابرة عن الأحداث التي جرت في دمشق . أنظر :

Gonzalez de clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406 ;

E. Piloti, l'Egypte au Commencement du quinzieme siecle

p. 119-121; W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 204-205.

عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر وسوريا في تلك الفترة^(٣) .

وترجم هاتين المقتلتين عن أصلهما اللاتينى الى اللغة الانجليزية ووضع بعض التعليقات عليهما الاستاذ والتر فشل Walter J. Fischel استاذ اللغات والآداب السامية ورئيس قسم لغات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا ، وهو متخصص فى الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى . وقد نشرت ترجمة Vita Tamerlani فى مجلة « Oriens » المجلد التاسع لعام ١٩٥٦ م فى حين نشرت ترجمة Ascensus Barcoch فى مجلة Arabica المجلد السادس لعام ١٩٥٩ م^(٤) .

والترجمة التى نقدمها هنا باللغة العربية هى عن ترجمة الاسناذ فشل . ولما كانت التعليقات التى وضعت فى الترجمة الانجليزية قد اعتمدت على مصادر كان معظمها آنذاك لا يزال مخطوطا أو مطبوعا طبعات مضى عليها زمن طويل ، ثم تغير الموقف الآن فنشرت معظم المخطوطات كما أعيد طبع العديد من المصادر طبعات حديثة ، فقد رأيت اتماما للفائدة أن أثبت مصادر الاستاذ فشل التى دونها فى تعليقاته ، ثم أضفت بعدها المصادر التى نشرت أو أعيد طبعها حديثا مع وضع علامة (*) التمييز بينها وبين مصادر الاستاذ فشل ، هذا بالإضافة الى الزيادات التى رأيت اضافتها الى تعليقات الاستاذ فشل لشرحها وتوضيحها ، وقد أشرت اليها أيضا بنفس العلامة .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حياة دى ميجنانللى انظر :

W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 206. Note, 2.

(٤) للمزيد من التفاصيل عن الأصل اللاتينى لهاتين المقتلتين انظر :

W. Fischel, Introduction to vita..., p. 207, Note, 3, 4.

وأرجو أن أكون قد وفقت الى تقديم ذلك المصدر اللاتينى الهام الى
قراء العربية لأهميته واشتماله على معلومات وافية وصحيحة عن تاريخ
مصر وبلاد الشام فى مطلع القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر م
لا غنى لباحث التاريخ عنها •

والله الموفق ••

د • أحمد عبد الكريم سليمان

حياة تاملان : Vita Tamerlani

كتبها دي ميچناتللي : De Mignanelli

ص (٢٠٨) ما نوردده هنا يدور حول أعمال المدعو تيمورلنك، وهو من أكثر الناس شرا — فى أقاليم سوريا وتركيا ، وما أحدثه من خراب مروع لمدينة دمشق الشهيرة ص (٢٠٩) الواقعة فى إقليم سوريا ، وهى تعتبر فى القسم الثالث من قارة آسيا .

أنا بلتراموس Beltramus سابقا ليوناردى دي ميچناتللي Leonardi de Mignanelli ، من سينا Siena ، بدأت فى سنة ١٤١٦ م اسجل — بناء على طلب الأصدقاء من أعمال تيمورلنك الشريرة فى سوريا فى أثناء اقامتى بمدينة كونستانس Constance الألمانية وقت انعقاد المجلس العام ، حيث كنت أعيش فى ذلك الجزء من العالم فى تلك الفترة .

فى شهر أكتوبر سنة ١٤٠٠ م جاء رجل قوى وشرير ، وهو سيد كبير يدعى تومورلنغ Thomorlengh المعروف تومور بيه Tomor Bey ، والمعروف أيضا تومورا ساش^(١) Tomor a Sach ، جاء من موطنه فى

(١) يشرح دي ميچناتللي اسم تيمور فى صفحة تالبة من مؤلفه حياة تاملان على النحو التالى : « ترجم اسم هذا الشيطان الى عديد من اللغات . فاسمهم الحقيقى هو تومور Thomor وهو يعنى بلغة التتار « الحديد » . ولما كان تيمورلنك أعرجا ، فقد أضيف الى اسمه كلمة Asach وهى تعنى أعرج . وهناك آخرون أضافوا الى اسمه بدائع من الاحترام كلمة بيه « بك » Bey ، وبالتالى أصبح اسمه Tomor Bey أى السيد تيمور . أما العرس فقد أضافوا كلمة lench ومعناها الأعرج ، ومن ثم سمي تيمورلنك أى تيمور الأعرج فى لغتهم . »

ذلك الجزء من العالم المسمى : Semi-Aguilonares أي الاقليم
الواقع بين الشمال والشرق فيما وراء بلاد التتار ، وزحف على اراضي
سلطان مصر وسوريا التي تقع تقريبا جنوب اراضيها التي اثرتنا اليها من
قبل ، فاستولى أولا على قلعة تقع بالقرب من نهر الفرات تسمى قلعة
الروم التي تعنى « حصن الرومان »^(٢) ، وقد كانت خاضعة للسلطان .

وقد استخدم دى ميچنانللى فى قصة اللاتينى بصفة دائمة لفظ تيمور
Thomor أو تومورلنك Thomor Lench بدلا من الاستعمال الغربى
الشائع تيمور Timur أو تاملان Tamerlane . أما لقب تاملان
الرسمى فهو أمير جورجيان Emir Gurgan وهو الاسم الذى كان مستخدما
على عملائه ، أو صاحب قيران Sahib Quiran « سيد الكواكب السعيدة »
كما كان المؤرخون الفرس يسمونه « جورجيان أو كوركمان » بمعنى صهر
الملوك . وهذه التسمية لم تكن معروفة لدى دى ميچنانللى . أما المؤرخون
العرب فاعتادوا أن يسموا الى تيمور بأنه الأمير أو السلطان أو الملك .

(*) انبثنا فى الترجمة العربية بعد ذلك لفظ « تيمور » المتعارف عليه
بدلا من تومور الوارد فى النص اللاتينى والترجمة الانجليزية دون الاشارة
الى ذلك التعديل فى كل مرة . وعن تيمورلنك انظر : ابن تغرى بردى : النجوم
الزاهرة — طبعة دار الكتب — ج ١٢ ص ٢٥٤ — ٢٧٠ ، ابن العماد الحنبلى ،
شعرات الذهب فى اخبار من ذهب .. المجلد الرابع جوامع حوالث سنة ٨٠٧ هـ ص
٦٢١ — ٦٢٣ .

(٢) حصن الرومان هذا كان يسمى أيضا قلعة المسلمين . وطبقا للنجوم
ج ٦ ص ٨١ فان تيمور لم يقم بغزوها . وعن موقع هذا المكان وغيره من الامكنة
المذكورة هنا انظر :

Le Strange, The Lands of Eastern Calphate, Cambridge 1905 ;
Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie à l'époque des Mamelouks,
Paris 1923 ; W. Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans
Systematic Notes to Ibn Taghri Birdi), U.C. Publ. in Semitic philo-
logy vol. xv, Berkeley 1955.

(*) تقع هذه القلعة على الضفة اليمنى للفرات ، وكانت بموقعها
الاستراتيجى بمثابة الباب الرئيسى لغزو سوريا ، وقد استولى عليها السلطان

ثم انحدر الى مدينة مالماتيا^(٣) Malmathia التي تقع بين أرمينية وتركيا وسوريا . وزحف بجيش لا يحصى عدده وأجبر المدينة على قبول شروطه . ثم ذهب الى أبعد من ذلك ، فعبر نهر الفرات ، ثم تقدم نحو سوزيا ، وبالقرب من مدينة الابيا Alapia^(٤) سحب جنوده وأنهم معسكره . وهي مدينة كثيفة السكان وجميلة وكبيرة وتقع على بعد أربعين ميلاً من أنطاكية طبقاً (ص ٢١٠) لنظام الميل في القياس عندنا .

وكان دومور دي الجيشى Do Mordey el Chasichi^(٥) نائب السلطان

الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م وكانت وقتها تضم حامية مغولية وأرمينية ، وبعد استيلاء الأشرف خليل عليها وضع فيها حامية مملوكية وأطلق عليها اسم قلعة المسلمين . انظر :

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٦—٢٧ : المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٣ ص ٧٨٨ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٧ ، ابن الوردي : تنقيح المختصر ج ٢ ص ٣٣٨ .
وكان تيمورلنك قد نزل على هذه القلعة ولم يقدر على الاستيلاء عليها ، فتركها ونزل عينتاب . انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦٥ .

(٣) المقصود بهذه المدينة ملطية التي استولى عليها تيمورلنك في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٤٠٠ م بعد فتحه سيواس .

(٤) المقصود بذلك مدينة حلب .

(٥) هو دمردأش أو تمرتاش الحمدي المتوفى عام ١٤١٥ م . وقد عمل نائباً في حلب ثم بعد ذلك في دمشق ، وكان من بين الشخصيات الهامة في أمراء المماليك ، وقد وصف المؤرخون حياته الحافلة بالتفصيل في كل المصادر الإسلامية . انظر :

Les Biographies du Manhal Safi, ed. Wiet, Le Caire 1932, p. 146

ويشير دي ميغانللي في Ascensus Barcoch ورقة ٦٥ بأن اسمه دوموردكس الجيشى Domordex el chasichi وهي نسبة خاطئة لأنها لم ترد مطلقاً في المصادر الإسلامية .

(*) اتبنا بعد ذلك في الترجمة العربية اسم ذلك الأمير على الرسم الصحيح له دون الإشارة الى ذلك في الحواشي تجنباً للتكرار . وعن ذلك الأمير انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٣٨—١٣٩ تحقيق د. جمال محمد محرز ، فهم محمد ثلثوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ (١٩٧٢) ، الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ٢ ص ٣٦٠ .

يقطن فى حلب ، وهو شاب صغير قوى البنية ذو شجاعة عالية • وكان فى مستهل حياته مسيحيا من اقليم سالونيك فى بلاد اليونان والتى نسميها نحن سالونيكيا ، وقد أصبحت على أى حال اسلامية • وعندما لاحظ أعمال تيمور رغب فى مقاومة ذلك العدو^(٦) • وطلب المساعدة من مواطنيه الآخرين ومن نواب السلطنة^(٧) ، خاصة من نواب دمشق وطرابلس وحماه • حمص والمدن القريبة الأخرى • وكانت دعوته من القوة بحيث سرعان ما اجتمع لديه ما بين ثلاثين الى خمس وثلاثين ألف رجل • واشتبك هذا العدد على صفه وبعناد وشجاعة فى معركة طاحنة مع جيش تيمور معتقدين أن جموع تيمور لن تجرؤ على مقاومتهم • وبخطة ذكية تظاهرت حشود تيمور بالفرار ، وفتحت ثغرة لجيش السلطان وسمحت له بالتوغل داخل خطوطهم ثم أطبقوا عايه فى نفس الوقت ، ثم حملوا على قوات السلطان التى أصبحت محاصرة ، وهجموا عليهم بعنف شديد حتى أن قوات السلطان تقهقرت بعد فترة قصيرة ، وبعد تدمير العدد الأكبر منهم تم أسرهم بسهولة كالنساء • وبعد أسر هؤلاء استسلمت مدينة حلب لتيمور

(٦) بعد أن غزا تاملان سيواس فى ٧ سبتمبر ١٤٠٠ م ادرك الأمراء المالك فى حلب خطورة الأمر ، وأرسلوا التحذير طو التحذير الى السلطان فى القاهرة • ولم تؤخذ هذه الاستغاثات بجدية فى القاهرة ، ولم يقم أحد بعمل أى استعداد للحرب ضد تاملان ، بل على العكس كما يقول ابن تغرى بردى بهرارة « بل كان جل قصد كل أحد منهم ما بوصله الى سلطنة مصر وابعاد غيره عنها » • انظر : النجوم ج ٦ ص ٤٦ •

(*) انظر : ابن نغرى بردى : النجوم ، طبعة دار الكتب ، ج ١٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ •

(٧) طبقا لنظام الادارى لدولة المالك كان يتم تعيين نواب السلطان فى معظم المدن الاقليمية مثل دمشق وحلب وطرابلس وحماه وحمص • • • الخ ونواب القلعة فى المدن الاقلية كانوا موظفين مختلفين عن هؤلاء النواب ، فكان نائب القلعة مستقلا عن نائب المدينة وعن الموظفين الآخرين فى نفس المدينة ، وكان تابعا للسلطان فقط •

دون تأخير ، وكذلك الاقليم المجاور لها^(٨) . وفى الحقيقة فان تمرتاش الذى أسر مثل الآخرين لم يكبل بالأغلال معهم بل كرمه تيمور كأحد نبلائه ، وقام تمرتاش بامداد قوات تيمور بالمؤن فاحتفظ بحكم تلك الأقاليم التى عين عليها حاكما من قبل السلطان ، وبسبب ذلك (ص ٢١١) التكريم الذى منحه له تيمور فقد أصبح مشكوكا فى أمره لدى السلطان ولدى شعبه واعتبر خائنا^(٩) .

وعندما كان تيمور يحكم مدينة حلب فى سلام أمر نى أحد الأيام

(٨) بدأ جيش تيمور حصار مدينة حلب فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٤٠٠ م .
ونتم استسلامها فى الثانى من نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . وتوجد تفاصيل كثيرة
عن خطط تيمور العسكرية وهجومه على حلب والفضائح التى ارتكبها نى
المصادر الاسلانية .

(*) أنظر : ابن قاضى شهاب : تاريخ ابن قاضى شهاب مجلد ٤ حوادث
سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٢-١٧٤ ، ابن حجر العسقلانى : انباء الغمر (تحقيق
د . حسن حبشى) ج ٢ ص ١٣٤-١٣٥ .

(٩) أكدت المصادر العربية أيضا رقة المعاملة التى تلقاها تمرتاش من
تامرلان . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٢ حيث يقول بأن تامرلان : « خلع عنبه ودفن
اليه امانا وخلصا للنواب » وأرسل معه عدة وائرة من أصحابه « وقد عرف
عنها بعد ان الرسول الذى أرسله تامرلان الى تمرتاش حاول أن يبتزها أمام
زملائه بقوله : « ان الأمير (يعنى تيمور) لم يأت البلاد الا بمكاتبتك اليه وانت
تستدعيه أن ينزل على حلب » وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها »
وقد استشاط تمرتاش غضبا عند سماعه ذلك . ولا شك أن ملاحظات السفر
كانت من تصميم وخداع تيمور ومكره بهدف بذر بذور الشقاق بين صفوف
الجيش الملوكي ، وكان الأمراء على علم بذلك ومن ثم فشلت الخطة ، ومع
ذلك فلا بد من وجود بعض الشك نى ولاء تمرتاش . ومهما كان الأمر فقد فر
تمرتاش من تامرلان وذهب الى دمشق حيث عين نائبا للسلطان . انظر النجوم
ج ٦ ص ٤٩-٥٧ .

(*) أنظر النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور (مطبعة
وادي النيل فى القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) ص ٩٢ .

باحضار كل قادة السلطان ونوابه الذين كان قد أسرهم وسألهم^(١٠) عن الوظائف التي تولوها وعن طريقة حكمهم نوابا للسلطان ، وعندما وجد بغيته^(١١) فإنه هز رأسه وقال : « انه من الواضح تماما انكم كسالى وتعملون تحت حكم سلطان غبي وحقير ، عينكم فى مثل تلك الوظائف الكبيرة » . ثم ابتدأ بنائب دمشق^(١٢) ، ثم سألهم جميعا عن نسبهم ، ونظر بامعان عن الفضائل التي توقع أن تكون قوية فى هؤلاء الرجال .

(١٠) من المعروف أن تاملان كان يستمتع بمناقشاته مع القضاة والعلماء فى كل مكان كما جاء فى كل المصادر . وكان من عادته أن يسأل علماء سوريا ، ثم يستغل اجابتهم كنريعة لتعذيب وقتل العديد منهم : انظر : ابن عريشاه ج ١ ص ٦٢٤-٦٤٤ ، ج ٢ ص ٨٠-٩٠ ، النجوم ج ٦ ص ٥٣-٥٤ ، ٦٦-٧٠ ، السخاوى : ج ٣ ص ٤٧ .

(*) وانظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(١١) لابد أن تاملان كان يلجأ الى مترجم لأنه لم يكن يفهم العربية كما لم يكن يفهم التركية والفارسية الا قليلا . ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك المترجم هو العالم المشهور عبد الجبار بن النعمان المتوفى عام ١٤٠٣ م ، وهو العالم المحجة فى الشريعة الاسلامية ، والذي جاء الى سوريا صحبة تاملان باعتباره من المدرسين فى المناقشة والجدل ، وهو الذى ادار معظم المناقشات باسم تاملان مع علماء حلب ثم فى دمشق . وفى المنهل « ورقة ١٤٨ ب » يسمى مترجم تاملان . انظر ايضا : السخاوى ج ٤ رقم ١٠٣ ص ٥-١٧ ، ابن عريشاه ج ١ ص ٦٣٢ .

(*) انظر : الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٩ حيث أشار الى وجود أربعة فقهاء مع تيمورلنك منهم عبد الجبار ، قتل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ص ١٢١ (التعليق رقم ٥٨) .

(١٢) كان ذلك النائب هو سيف الدين سودون الذى جاء مع الامدادات التي انضمت الى حامية حلب وأسرهم فيما بعد تاملان ، وكان تاملان يعتبره مسئولا عن قتل سفيره ، وقد قتل فيما بعد لهذا السبب . انظر : Manhal, ed. wiet, p. 460 No. 1119.

(*) وقد ذكر ابن تغرى بردى فى النجوم ج ١٢ ص ٢٢٤ أن تيمورلنك حضر كبار الأمراء الأسرى بين يديه وهم مكبلون فى الحديد ورئيسهم سودون نائب الشام « ثم أخذ بقرعهم ويوبخهم ويلوم سودون نائب الشام فى قتله لرسوله ، ثم دفع كل واحد منهم الى من يحتفظ به » .

ولما لم يجد شيئا جديرا بالمديح فانه قال : « حقيقة انه لا قيمة لكم الا أن تكونوا رعاة للخنازير والحيوانات طالما أنكم تفتقرون الى كل فضيلة ونبل » . وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، لأنه قد تم بيعهم كعبيد ورعاة للحيوانات . ثم دعا تيمور رجاله للمثول بين يديه ، وكان عددهم كبيرا . ثم أشار الى رجال السلطان وقال : « هل أنتم على شاكلة هؤلاء الرجال ؟ » لقد اعتبروا جديرين بأن يحكموا ، ومنذ أن كانوا صغارا نعلموا الكثير . ومن الواضح أنهم لم يرعوا الحيوانات كما فعلتم أنتم » .

ص ٢١٢ : أما رجال تيمور فقد كانوا أكثر وجاهة وشرفا بحكم مولدهم ، وكانوا رجالا بارزين وأولى فضل وعركتهم السنون . وبعد توجيه مثل تلك الالهانة لرجال السلطان فان تيمور أصدر أوامره بحصاد القمح وأن يحمله هؤلاء الرجال على ظهورهم ، وكذلك سائر أنواع الحبوب والشعير والتبن الذي تأكله الخيول ، وكذلك الأخشاب والمؤن الأخرى المشابهة لها لسد احتياجات الجيش . وكان يأمرهم قائلا : « افعلوا ذلك أيها الفلاحون لأنكم غير جديرين بأى عمل آخر » . ولم يفعل ذلك معهم لحاجته الحقيقية اليهم ، فقد كان لديه عدد كبير من الرجال . بل تحقيقا واذلالا لهم .

وبعد أن أتم ذلك فانه احتفظ بهؤلاء الرجال أسرى ، وللسخرية فانه أرسل سفراءه فى مهمة سلام زائفة الى مدينة القاهرة مقر السلاطين الى السلطان الطفل فرج^(١٣) ابن السلطان برقوق Barcoch^(١٤)

(١٣) يشير الى السلطان المملوكى فى ذلك الوقت وهو السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق . وقد ولد فرج عام ١٣٨٩ م واعتلى العرش وهو فى سن العاشرة فى العشرين من يونية عام ١٣٩٩ م ، ثم خلع فى سنة ١٤٠٥ م ولكنه بعد فترة سبعين يوما استعاد سلطنته واستمر فى الحكم من يونية ١٤٠٥ م حتى وفاته فى الرابعة والعشرين من عمره عام ١٤١٢ م . انظر : النجوم ج ٦ ص ٢٧٠ .

(*) خلع الناصر فرج من الحكم فى ٢٥ من المحرم عام ٨١٥ هـ وقتل فى ١٦ صفر سنة ٨١٥ هـ . انظر : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١٣ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

ولم يكن هدفه تحقيق السلام كما برهنت الأحداث ، بل كان هدفه التجسس على أحوال السلطان وبلاده وبذر بذور الشقاق^(١٥) . ومدينة الالبيا Alapia التي تسمى حلب في العربية تقع على بعد سبعمئة ميل ايطالي من مدينة القاهرة . وكان السلطان في الرابعة عشر من عمره ويحكم عن طريق مجلس مكون من رجال حديثي السن متغربين . وخلال شهرى أكتوبر ونوفمبر تفاوض السفراء من أجل السلام . وقرر السفراء أن تيمور راغبا في معاملة السلطان كابن له شريطة أن تحمل العملات الذهبية والقضية التي تسك في أراضي السلطان في المستقبل اسم تيمور ، وزيادة على ذلك فقد طلب مبلغا من المال يعطى لمحاربيه كان من الضخامة بحيث لا تستطيع كل ايطاليا ذاتها أن تفي به ، وأن تقام الصلوات في المساجد باسمه هو لا باسم السلطان . وكان الهدف من كل هذه الطلبات هو حكم الاقليم والسيطرة عليه^(١٦) . ولم يكن السلطان ميالا مطلقا لتلبية أى من هذه المطالب اذ أنه كان لا يزال حدثا ، لكنه فعل ذلك بناء على طلب مستشاريه .

== (١٤) كان دى ميچناتلى يكتب دائما اسم السلطان برقوق على هذا النحو . انظر سيرة ذلك السلطان التي كتبها دى ميچناتلى بعنوان : Ascensus Barcoch ، وتوجد ترجمة انجليزية لها وتعليقات معدة للنشر . (*) نشرت ترجمة Ascensus Barcoch من اللاتينية الى الانجليزية بمعرفة والتر فثل في مجلة Arabica, Vol. 6, 1959. (١٥) تؤيد المصادر العربية ارسال السفراء الى السلطان نرج في القاهرة .

(*) وفقا لما جاء في النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاب السلوك للمقريزى فان طلب تيمور الصلح من السلطان الناصر فرح كان بعد وصول الناصر الى دمشق وليس قبل ذلك . انظر :

ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ١٠٤٢ .

(١٦) الشرط الخاص بسك العملة باسم بوز وائمة خطبه الجمة باسمه لم يرد في المصادر العربية ، انما جاء فقط في المصادر الفارسية . انظر :

Sharaf ad-Din, 111. pp. 318-320 ; Piloti de Crete, L'Egypte, pp. 119-120

وهكذا فانه عندما انتهى حديثهم وتجسسهم أيضا عادوا الى حلب (ص ٢١٣) ، وخلال الوقت الذى كان السفراء يتباطؤون فيه فى العودة فان تيمور أعاد تنظيم المدينة وسائر الاقليم تماما ، وأمسك عن أن يصب عليهم من الآن فصاعدا مرارته الدفينة التى كان يكنها لهم بعد عودته ، كما أحجم عن الكشف عن ميوله الشريرة بصفة عامة ، لكنه أمر بالهجوم عن الحصن القوى أو قلعة حلب التى تقع على مرتفع منيع وأعلى من قلعة دمشق . وكان ذلك الحصن يفوق ما سواه من الحصون روعة فى تلك المنطقة . وقد دافع عنه من كانوا بداخله دفاعا باسلا . وفى نهاية الأمر وبعد أن أمر تيمور قوات السلطان باعداد الحفر التى عينها لهم كى يقتلهم فيها رميا بالسهام ، فقد استسلمت القلعة بناء على وساطة تمرتاش المذكور آنفا ، فوضعت نهاية للحرب الدائرة بصفة مؤقتة (١٧) .

وعندما أراد السكان العبريون فى نهاية شهر نوفمبر الاحتفال بأحد الأعياد (١٨) كما هو المعتاد بينهم ، وخشية أن يتم نهبهم من قبل جماعات تيمور فانهم احتشدوا فى المعبد يؤدون الصلاة فى خشوع وحواف . ولكى يوفرؤا لأنفسهم مزيدا من الحماية فانهم حملوا معهم الى داخل المعبد كل ما يمكن حمله من أمتعتهم ، وما غلى ثمنه ، وعلى سبيل المثال : نقودهم وجواهرهم وأشياءهم الثمينة وما شابه ذلك . وفى ذلك الوقت كان فى جيش تيمور بعض المحاربين الذين كانوا يعرفون لغة اليهود الى حد كبير ، وما أن عرف هؤلاء بما فعله العبريون ، وبموافقة تيمور — فيما يعتقد —

(١٧) بعد اقتحام قلعة حلب سنة ١٤٠٠ م بدا تيمور زحفه جنوبا عن طريق بعلبك بجاه دمشق وقد مكث فى حلب حوالى شهر . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٠-٥٣ .

(*) انظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٥-٢٢٨ ، المقربرى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥-١٠٣٨ .

(١٨) من الامور الغامضة أن نعرف ما هو العيد الذى يقع فى شهر نوفمبر الذى يشير اليه دى ميچنانالى فهل يمكن أن يكون عيد شانوكا Chanukka أو ربما عند السبت Sabbath ؟

حتى ذهبوا مسلحين تسليحا جيدا ومتنكرين فى زى يشبه زى اليهود من أجل زيارة المعبد كما أدعوا ذلك • وقد ذهبوا الى المعبد ورؤوسهم منكسة ، ويتمتمون بصلوات عبرية ثم قالوا : « نحن من قومكم وعبريون مثلكم » • واستمع هؤلاء الرجال الحمقى الى حديثهم المعسول عن الكتب المقدسة والمزامير والتلمود وكل الكتب اليهودية المقدسة ، وصدقوا كل ذلك خاصة عندما سمعوا أنهم يعرفون التلمود لأنه كان كتابا غامضا ولا يفهمه الا فلة فقط ، فهو كتاب فاسد ومزيف ، وهو تقريبا نسخة محرمة من الانجيل^(١٩) •

وقال هؤلاء الرجال « المزيفون » أنهم يعبدون اله اليهود العظيم ، وأنهم جاءوا الى المعبد للعبادة ، وبدافع من الحب الأخوى الذى يشبه فى اخلاصه وفاء الكلاب ، ولحماية هؤلاء العبريين وممتلكاتهم ، ورعوا أنهم جاءوا اليهم بروح من الأخوة الأبدية من أجل المستقبل ، وأظهروا تقديسا للمعبد ، وأضافوا بأن تيمور يرغب فى سلب المدينة ، وأنغروهم لاحضار كل ممتلكاتهم الى المعبد لأن ذلك أكثر أمانا ، ووعدوا وعد الذئاب متظاهرين بالحب الزائف لهم ، وأدعوا أنهم سيحمون الجميع • وقد سدد هؤلاء اليهود الحمقى المجردين من العقول كل ما قيل لهم ، وشكروا الله شكرا جزيلا معتقدين أنهم نالوا من التكريم فوق ما اعتادوا • وامترجت لديهم مشاعر البهجة والكبرياء فراحوا يجذفون فى حق أمراء المسيحيين بأسلوب مبالغ فيه لأنهم لم يكرموا الزعيم اليهودى المكابى المزيف ، ولم يقدروه حق قدره كما ادعى هو لنفسه • وأخذوا يغدقون الثناء ويرفعون الصلوات المخلصة من أجل تمجيد ذلك الأمير العظيم لأن هؤلاء الرجال الحمقى لم يدركوا ما سيأتى به الغد^(٢٠) •

(١٩) ان وجود يهود فى جنس نامرلان ، وان هؤلاء اليهود كانوا يعرفون العبرية والانجيل والتلمود هو رعم لا يصدق •

(٢٠) هذه الرواية التى رواها دى ميجنانللى عن اليهود فى حلب اثناء حصار نامرلان لها هى الرواية الوحيدة الأسطورية التى نفتقر الى الحقيقة التاريخية • المزيد من التفاصيل أنظر الملحق فى نهاية الترجمة الانجليزية •

وعندما أخلت المنازل وامتلا المعبد دخل اليهود الزائفون — من رجال
تيمور — وكان كل منهم مسلحا بسيف حاد وذبحوا اليهود كلهم كبارا
وصغارا ، ولم ينج أحد حتى النساء ، وبعض الفتيات الصغيرات الجميلات
اللاتى استبقين على قيد الحياة اغتصبن فى المعبد ؛ لكن الأخريات قتلن •
وعندما تم تدنيس المعبد بالقذارة والدماء ، أفرغوه من كنوزه وقسموا
الأسلاب وهم يضحكون على حماقة العبريين • وكان لدى تيمور رجال
ممتازون ومهرة فى اللغة العربية واليونانية والعبرية وفى كل لغة • كما
كانوا على نفس القدر من المهارة فى علم الفلك والهندسة والتعاويذ
والسحر ، وعلى علم وافر فى كل لون من ألوان المعرفة التى من ذلك القليل •

وعاد السفراء من القاهرة بعد أن أتموا تجسسهم • وبعد تكرار
تأخيرهم ، وقد حملوا معهم رد السلطان الى تيمور • وأخبروه عن الجيش
الذى يعده السلطان ضده ، ففعل نفس الشيء وجهاز جيشا على أهبة
الاستعداد ، وانتظر فى فرح مجيء السلطان • وكان تيمور يتمنى أن يبعث
السلطان فى الأسر • ولكى يسهل تيمور على نفسه ذلك العمل تظاهر بأنه
يرغب فى السلام ، تيلاء على دمشق • وقد فعل ذلك كى يستدرج السلطان الى
الممر الضيق الذى اختاره تيمور بالقرب من دمشق • وقد حدث ذلك فى
نهاية الأمر اذ أتى السلطان الى ذلك المكان دون أن تكون معه قوة كبيرة
بل بجيش جميل المظهر يصل عدده الى أربعين ألف • فرجال السلطان
كانت لديهم خيول جيدة • وخوذات ودروع ، ودروع الصدر (ص ٢١٥)
وكل نىء آخر يحتاج اليه الجيش فى المعركة باستثناء دروع تفاصيل
وسيقان الجند ، فقد كانوا غير معتادين عليها • وجاءته الامدادات من
الفتيان الذين التحقوا بالجيش فباع منهم الأقل شجاعة كماليك كما عى
العادة فى بلاد السلطان •

وأتخذ السلطان بعد ذلك طريقه الى دمشق^(٢١) ، وأعقبه تيمور بأن فعل نفس الشيء مع قواته ، واتجه الجيشان الى دمشق فى قوة متكافئة • والمسافة بين دمشق والقاهرة هى خمسمائة ميل ايطالى • أما حلب فهى على بعد حوالى مائتى ميل من دمشق ، وتقع حلب فى اتجاه الشمال فى حين تقع القاهرة فى اتجاه الجنوب والى الغرب قليلا • وهكذا اقترب الطرفان من دمشق ، تيمور من الشمال ، والسلطان من الجنوب ، فحين تقع دمشق فى الوسط • وكان السلطان الطفل يمكث دائما مع قواته عند طولج الليل^(٢٢) • وهكذا كثوا بالقرب من بعضهم البعض ودمشق تقع بينهم •

ووقعت مناوشات حادة مستمرة من كلا الجانبين ، ودافع رجال السلطان بثبات عن شرفهم ضد رجال تيمور • ومع اقتراب رأس السنة

(٢١) غادر السلطان فرج القاهرة بجيشه النظامى ومعه امراؤه وقضائه فى ١٩ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م • (انظر السلوك ورقم ١٢٤ والنجوم ج ٦ ص ٥٥) واتجه الى الريدانية وهى المعسكر الامامى للجيش الزاحف الى معركة ، وتقع على بعد ميل شمال القاهرة • وغادرت طبعة للجيش الريدانية فى ٢٦ نوفمبر ، ثم تبعها السلطان بقواته الرئيسية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م • وقد وصل فرج الى غزة فى ٨ ديسمبر ثم تحرك الى دمشق فى ١٤ ديسمبر حيث بلغها فى ٢٣ ديسمبر فمكث فى القلعة مع حرسه حتى ذهابه الى معسكره • انظر النجوم ج ٦ ص ٥٨ •

(*) انظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٢ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ — ١٠٤٠ •

(٢٢) كان معسكر فرج عند قبة يلبيغا مع ابن اياس ج ١ ص ٣٢٣ يقول ان المعسكر كان فى القصر الابلق خارج اسوار المدينة غربى التلعة •

(*) فى بدائع الزهور لابن اياس ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ — ٦٠٦ ان الناصر فرج دخل دمشق فى السادس من جمادى الاولى ونزل بالميدان الكبير وجلس بالقصر الابلق وصلى الجمعة بدمشق ثم خرج الى مخيمه ظاهر المدينة عند قبة يلبيغا •

تخسبت معركة حادة غير عادية^(٢٣) ، وكان تيمور على بعد حوالي خمسة أميال من دمشق^(٢٤) ، في حين كان جيش السلطان على الجانب الآخر . ولكنه أكثر قربا من المدينة . وفي هذا الموقف أظهر رجال السلطان موقفا شجاعا وثقة بالنفس ، ولقد كان ذلك في الحقيقة موقفا متهورا تجاه العدو ، وكان ذلك سيئا بالنسبة لهم حيث كانوا قلة ضد كثرة كثيرة . موافى لأعتقد أنه لو كان السلطان راغبا في حشد كل الجيش الذي لديه في أراضيه لأحرز نصرا مجيدا على العدو . ولكنه أخذ بنصيحة الشهاب الأغرار المتطربين الذين كانوا يسيطرون عليه . ورفض بازدراء نصيحة كبار السن من مستشاريه .

وفي شهر يناير وبعد عيد الغطاس دارت معركة (ص ٢١٦) شرسة^(٢٥) ، وهي معركة لم يشترك فيها الجيش بكامله ، كما أنها لم تكن

(٢٣) تعطينا كل المصادر المعنية تفاصيل ممتدة عن المناوشات والمعارك التي وقعت في ذلك الوقت . وطبقا للمصادر العربية فإن بعض هذه المصادقات وقعت بين طلائع الجيشين في ٢٥ ديسمبر عندما ألحق مائة من الفرسان المصريين الهزيمة بالف من مقدمة جيش تاملان . وقد ذكر شرف الدين نفسه أن الفرسان المصريين أجود فرسان العالم . انظر :^١

Sharaf ad-Din, III, p. 313.

(*) عن هزيمة مقدمة جيش تيمور انظر المصادر العربية التالية :
ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٣ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ١٠٤١-١٠٤٢ ، ابن آياس : بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

(٢٤) كان مركز مراقبة تاملان يسمى قبة سيار ، وكان هذا الموقع وهو على منحدر بل يبعد عن قبة يلغا بميلين قريبا ويسيطر على الرؤية ليس فقط بالنسبة لدمشق بل بالنسبة لمساحة كبيرة من الاقليم حتى جبل هارمون Mt. Harmon . وعلى أى حال فإن تاملان لم يمكث على ذلك النل أكثر من شهر ، كذلك فإن السلطان فرج لم يبق طويلا عند قبة يلغا كما سوف نرى .

(٢٥) ربما يشير دى ميجنانللى هنا الى المعركة التي وقعت في أول يناير سنة ١٤٠١ م (النجوم ج ٦ ص ٥٩) فبعد فرار الجناح الأيسر للجيش المصري نجح الجناح الأيمن في صد هجوم عنيف نحت قتاده تاملان شخصيا الذي حاول النفاذ الى داخل المدينة .

(*) عن هذه المعركة انظر المصادر التالية : ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٤-٢٣٥ ، ابن آياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

معركة نظامية • وقد انتصر رجال السلطان أولا ، ثم ان بعض الذين اجبروا على الفرار على يد رجال السلطان هربوا الى معسكرهم • وعلى أى حال فان معظم المصادر البارزة تجمع على أن ذلك العمل كان خدعة مدبرة مسبقا ، فما أن وصلوا الى خيام تيمور حتى اجتمع حشد كبير لا يحصى ضد رجال السلطان • وبصوت عال ، وبالصياح والعيول ، ودوى البوقات والآلات الأخرى انقضوا عليهم وحدثت مذبحة كبيرة سقط فيها أعداد لا حصر لها من الجانبين • وأخيرا فان رجال السلطان لم يستطيعوا أن يواجهوا مثل ذلك العدد الغفير وعجزوا عن المقاومة وأرغموا على التقهقر • ومع حاجتهم الى ما يحفز همهم أكثر من حاجتهم الى الرماح فانهم واصلوا المقاومة أمام دمشق • وأخيرا هربوا الى خيامهم • ومزقوا شر ممزق وذبح وأسر الكثير منهم (٢٦) •

وفى الليلة التالية ألم بهم حزن عميق ، وراحوا يسترجعون حماقتهم فى اليوم السابق وفشلهم فى مواجهة حشود تيمور ، ولم يستطيعوا كبت بكائهم وعويلهم • وبينما هم على هذه الحالة فى الليلة التالية بعد غرارهم أعاد جيش تيمور تشكيل نفسه من جديد مبتدءا من خيام تيمور شمالا ومتخذا شكل قوس على هيئة نصف دائرة ، وانتشر فى اتجاه الشرق منحرفا الى الجنوب بالقرب من الجبل المسمى مونستريفيز Monstrivis (٢٧) • ثم أشعلوا نارا ضخمة حولهم من كل ناحية سدت كافة الطرق المؤدية الى القاهرة • وكان هناك عدد كبير من الحرائق من ذلك النوع فى كل مكان بحيث ساد الاعتقاد أن هذه الحرائق قد غطت

(٢٦) هذا الوصف ينفق مع ما قاله المؤرخون العرب • وقد وقعت هذه المعركة الكبرى فى الخامس من يناير سنة ١٤٠١ م •

(٢٧) عن الكمين الذى أعده تيمورلنك لقوات المماليك وراء جبل الكروان انظر :

الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٣ • العنى : عقد الجمان — مخطوط — مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٢ •

(٢٧) ليس وانسحا المقصود بهذا اللط •

مساحة مائة وخمسين ميلا * ولما كان معسكر السلطان يقع فى منتصفه تلك النيران فقد جن جنونه عند رؤية الطريق الذى سلكه عند قدومه من القاهرة مسدودا والذى قال رجائه انه بوسعهم الانسحاب عن طريقته الى القاهرة (٢٨) * ومع الخطر الذى أحرق به رجال السلطان، فقد حاولوا فى فزع وخجل التفكير فى حل، فمعدوا فى الليل مجلسا للتشاور حيث قرروا الهرب سرا (٢٩) ، واتجهوا غربا تجاه (ص ٢١٧) باراتوس Baratus (٣٠) . لأنه لم يكن هناك طريق آخر أكثر أمنا *

(٢٨) (*) أشار الخطيب الجوهري الى موضوع اشعال النيران فقال : « فلما اظلم الليل اوقدوا نيرانا عظيمة ، بحيث اوقعوا فى قلوب الناس رعبا عظيما : انظر : الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٣ .

(٢٩) وصلت شائعة الى دمشق عن سبب هروب السلطان فخرج والامراء الى القاهرة مفادها ان هناك مؤامرة ضد السلطان دبرها فى القاهرة الشيخ سيف الدين لاجين الجركسى . وقد حدث فرار السلطان فرح عائدا الى القاهرة مع الأمير يشبك فى ليلة السابع من يناير عام ١٤٠١ ، ويعنى ذلك ان السلطان فرج مكث فى دمشق حوالى اسبوعين فقط وهى الفترة ما بين ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠ الى ٧ يناير ١٤٠١ م . اما دى ميچناتلى فقد انضم الى الفريق الهارب فى العدى وعاد معه الى القاهرة .

(*) كان السلطان فرج قد وصل الى دمشق فى السادس من جمادى الاولى سنة ٨٠٣ هـ وغادرها فى الحادى والعشرين من نفس الشهر .

(٣٠) يشير ذلك اللفظ الى بيروت . ولكن السلطان فرج وفريقه الهارب كان من المستحيل عليهم ان يتخذوا مثل ذلك الطريق شمالا . ولم تتفق المصادر العربية حول الطريق الصحيح للهرب ، ومن الممكن الافتراض ان الطريق الذى اتخذه الناصر فرج كان بين عكا وصفد باعتباره أقصر طريق يوصل به الى ساحل غزة فى طريق العودة الى القاهرة .

(*) انظر المصادر العربية التالية حول هذا الموضوع :

ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٦-٢٣٧ ، المنبرى : كـ اب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، الخطيب الجوهري : نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٤-٨٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٦٠٩ .

وكان عدد هؤلاء بما فيهم السلطان الطفل حوالى ثلاثة آلاف ، وقد
تجهبهم الفلاحون^(٣١) بطريقة مخزية • وأخيرا فان الذين اخترقوا — ولم
يتمكن الجميع — منطقة سهل نوح المسماه Elmaieg^(٣٢) فى أثناء
رحلتهم بين دمشق وبيروت ، استداروا الى اليسار فى اتجاه القاهرة ،
وقد فضلوا أن تدمر تدمشق والاقليم بأكمله على أن يقعوا أسرى فى يد
قيصور وينالهم الخزى على يديه • وهكذا وبينما السلطان يتراجع وقد
وقع رجاله أسرى ونهبت خيامه بما فيها من ثروات نفيسة ، فان تيمور
استدعى كل قواد جيشه وخطب فيهم قائلاً : « لقد استولينا على دمشق
وأحرزنا النصر على السلطان كما تنبأت ، وكما تنبأ لى رجالى الحكماء •
والآن يجب أن نتحرك بحذر حتى لا تكون مهارتنا سببا فى هزيمتنا ونفسد
مشروعاتنا ، لذلك التزموا بخططى وكفوا تماما عن احداث أى تغييرات » •
وبناء على أمر تيمور فقد خلد الكل الى السكون ، وكان ذلك بدرجة كبيرة
تشبه المعجزة ، اذ خلد كل شىء الى السكون بما فى ذلك الخيول
والحيوانات الأخرى ، وأظهروا خضوعا ليس له مثيل •

وبعد انسحاب السلطان أصبح شعب دمشق بدون قيادة ، فساع
فيهم الاضطراب ، وبسبب اضطرابهم وحزنهم فانهم لم يعرفوا ماذا ينبغي
عليهم أن يفعلوه^(٣٣) • وقد أثار اعتدال العدو دهشتهم ، وتمنوا أن
تنتهى الحرب فورا • وبمرور الوقت ساعة تلو أخرى فانهم لم يلحظوا

(٣١) الصعاب التى واجهها فريق السلطان فرج الهارب على يد الفلاحين
الوطنيين (ومعظمهم من الدروز) أثناء فراره الى القاهرة قد وصفها ومربها
ابن خلدون عندما عاد فى تاريخ لاحق من دمشق الى القاهرة .
(*) عن هذه الصعاب انظر المصادر العربية التالية :
ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٧—٢٣٨ ،
المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ،
العينى : عند الجان مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤—١٨٥ : ابن
حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٣٧ •

(٣٢) يبدو انه يشير الى كرك نوح Karak Nuh انظر :

Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie., p. 74, 247.

(٣٣) بفرار السلطان فرج والأمراء أصبح أهل دمشق بلا قيادة عسكرية،
ونرك أمر الدفاع عن المدينة لسكانها الذين أغلقوا عليهم أبوابها •

من فوق أسوار المدينة شيئاً غير عادى ، ولا أدنى جلبة فى الخارج حتى تطرق اليهم الشك بوجود خيانة عظمى . وأخيراً وعند الظهيرة قرروا فى ذلة أن يطلبوا مرور سفرائهم فى أمان^(٣٤) . (ص ٢١٨) وعندما مسحوا ذلك الأمان ، أرسلوا القضاة الأربعة أى رجال الشريعة الى تيمور ، وهم رجال مهرة فى الشريعة ، وكذلك الكتاب الذين طلبهم تيمور^(٣٥) . وعندما اقتيدوا الى حضرته اعتقدوا أنه سيستقبلهم استقبالا لائقاً ، ولكنهم وجدوا عكس ذلك ، فقد تظاهر أنه لا يراهم وأعطى موافقته ! سماع الآخرين أولاً . وأخيراً عندما اقترب المساء قال : « من هؤلاء الغرباء ؟ » - كما لو كان لم يره من قبل . فخر القضاة على ركبهم وأغدقوا التملق

(٣٤) المقصود بعبارة Safe conduct هو الأمان فى التعبير العربى - وهو رسالة تتضمن السلامة الشخصيه لحاملها ، فهو مثل جواز المرور - ونعلم من المصادر أن تاملان أرسل اثنين من سفرائه بعد قرار فرج لى أسوار دمشق ينادون من بعيد « بأن الأمير يرغب فى الصلح ، ومن أجل هذا أرسلوا رجلاً معاً ليجدته فى ذلك » . ولابد أن ذلك قد حدث فى ٩ يناير سنة ١٤٠١ م . أما طلب الأمان فربما جاء استجابة لعرض تاملان : انظر : السلوك ورقة ١٢٦ ، النجوم ج ٦ ص ٦٢ . ابن أياس ج ١ ص ٣٣١ .

(*) انظر أيضاً : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٨-٢٣٩ . المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن أياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ .

(٣٥) لا يذكر دى ميچنانللى أسماء القضاة الأربعة والوجهاء الآخرين الذين ذهبوا لمقابلة تاملان . وقد ذكرت المصادر العربية أسماءهم - فرئيس الوفد هو القاضي الحنبلى تقى الدين ابراهيم بن مفلح (عنه انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢ ، ١٥٣ ، السخاوى : ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨) . ويقول ابن أياس فى ج ١ ص ٣٣١ أن ابن مفلح لم اختياره « لأنه بجيد التركية والفارسية » أما دى ميچنانللى فإنه يغفل الظروف الخاصة التى أرغبت الوفد على تسليق أسوار دمشق على الحبال كما يقول البعض بسبب رفض نائب القلعة أن يسمح بفتح أبواب المدينة لهم لطلب العفو .

انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢-٦٣ ، ابن أياس : ج ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(*) وانظر أيضاً : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٩ . المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن أياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ . وعن القاضي ابن مفلح انظر : شمس الدين ابن طولون : قضاة دمشق - الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام « ص ٢٨٨-٢٨٩ ، حقيق د - صلاح المنجد طبع دمشق ١٩٥٦ م .

والثناء على تيمور وقالوا : « نحن عبيد رحمتك . وسفراء عبيدك تسعبد
دمشق الذين يبذلون طاعة كل أمر لك . وقد جئنا لطاعة أوامرك » . فأجابهم
تيمور : « أريدكم أن تعرفوا أنني قد جئت الى هذه الأقاليم من بلدى
أنبعيد ، وقد تكلفت نفقات وخرائب كبيرة من أجل أن أزيل عنكم مقط
أنتم الطيبون أتباع محمد المخلصون (مع أن إيمانه فى الحقيقة بمحمد
أقل من إيمانى أنا دى ميجنانللى) المرض القاتل الذى طالما عانى منه
هذا البلاد المقدس . اننى سوف أجاهد أن شاء الله لكى أحرركم من نير
المسيحيين اللعين ، ومن نير السلطان وحاشيته (وأتمنى لو كانوا مسيحيين
حقيقيين) (*) لأن السلطان وكل المسيحيين المزورين لا يحكمون لأى قانون .
لذلك وبدافع من توقير نبينا محمد العظيم الذى أخلصت له نفسى طويلا
فان مدينة دمشق هذه وكما ترون أستطيع تدميرها مع كل ممتلكاتكم فانى
أهبها وأمنحها وأسلمها لكم أنتم الذين تقيمون فى الوقت الحاضر داخل
أسوارها بشرط أن أولئك الذين غادروها عندما عاموا بقدومنا لن يشملهم
عطفنا ومعروفنا . وبناء عليه فان كل ممتلكات السلطان وأتباعه والذين
غادروا المدينة تضاف الى خزانتنا » (٣٦) .

وعندما سمع القضاة الحمقى هذه الكلمات فانهم بكوا فرحا وأجنبوا
بأنهم يشكرون الله فى الحال لقدم (ص ٢١٩) أمير له كل ذلك الاخلاص
والتقوى والرحمة ، فهو أب كبير وراع وعلى عام بالشرعية المحمدية ،
والذى نكرم الله قوهبه لشعبه المؤمن . ووضعوا أنفسهم تحت طاعة ذلك
الأمير ، وعرضوا أن يطيعوا توصياته خصوصا فيما يتعلق بممتلكات
السلطان وأتباعه . وقد بدأ ذلك عادلا وشرعيا طالما أن هؤلاء الرجال

(*) هذه الأمنية بين حاصرتين . وبدو أنها صادرة عن دى ميجنانللى فى
النص الأصلى .

(٣٦) رواية دى ميجنانللى هنا بضاهى فى النقاط الرئيسة المفصلة
الدقيقة الواردة فى المصادر العربية .

(*) انظر المصادر العربية التالية : المقربرى . كتاب السلوك ج ٣ فى ٣
ص ١٠٤٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٣ . اس اباس : دابع
ج ١ ق ٢ ص ٦١٣—٦١٤ .

الأغبياء المجردين من العقل لم يعرفوا ما الذي سوف يجلبه المستقبل
عليهم •

رحل القضاة في فرح وحبور بعد أن وعدوا تيمور بالعودة إلى
معسكره في اليوم الذي يرغب فيه ، ثم دخلوا دمشق وأحاطوا أهلها علما
بما وقع وشجعوهم على قبول مطالب تيمور ، إذ أن ذلك من حسن الطالع
لهم (٣٧) • وطبقا لعاداتهم فقد ساروا في موكب عبر المدينة وضواحيها
الرحبة يغنون ويمجدون الله سبحانه وتعالى حمدا لا يحصى ولا يعد •
وقاموا بالبحث عن ممتلكات الذين حددتهم تيمور بدقة وعناية • ومن
عجب أن من أسند اليه منهم مهمة البحث عن تلك الممتلكات — وهم كثير —
كانوا من الحماقة بحيث أن من وجد منهم قدرا أكبر من الممتلكات كان
يعتبر رجلا مباركا ومخلصا لله • وهكذا فإن خيام السلطان وأتباعه ،
وخيولهم وبغالهم وابلهم وحملاتهم ودوابهم وكل ما وجدوه — وهو كثير
العدد — أهدوه لخزانة تيمور • وبعد أن جرى البحث الدقيق والشامل
فإن ممتلكات المواطنين الغائبين وأولئك الذين كانوا يعيشون من قبل في
دمشق أحضرت إلى الخزانة • واعتاد القضاة الأربعة الذهاب مرتين كل
يوم إلى خيام تيمور التي كانت على بعد ميلين إيطالي من المدينة • وقام
القاضي الشافعي رئيسهم والقاضي الحنفى والقاضي المالكي والقاضي
الحنبل باعداد الترتيبات لمواطنيهم لحضار المؤن إلى معسكر تيمور ليلا
وناهرا • وبناء على أوامر تيمور التي تبعث على الفور فإنهم كانوا
يترددون جيئة وذهابا على المعسكر في أمان وهم يحملون تروا لا يصدتها
العقل وأصبحت المدينة تنعج بحركة دائبة مثل تل النمل •

وتجول موظفو تيمور مع هؤلاء الذين في المدينة خلال طرفاتها

(٣٧) عارض بعض قادة دمشق في قبول عرض السلام عند عودة ابن
مفلح من زيارته الأولى لتيمور ، لكن آراء ابن مفلح هي التي سادت في النهاية .
للسلوك ورقة ٢٦ ب ، النجوم ج ٦ ص ٦٣ ؛

(*) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ ، التقريرى :
كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن أبياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ •

وأحيائها يزورون أصحاب الحوانيت ومراكز العمل والحرفيين ، كما زاروا أيضا الأماكن التي تتم فيها المعاملات التجارية ، فإذا لم يلب دعوتهم من فودى عليه من أصحاب الحوانيت فإنهم كانوا يكسرون باب حانوته ثم يعبئون كل ما فى داخله فى سلال ويحملونها الى الخزانة . وكانوا يقررون أن تلك الممتلكات هى لرجل ظالم لا يثق فى رحمة داك الأمير الكبير ، وهارب من وجهه . وغير راغب فى انتظار معروفه . (٢٢٠) أما اذا أجاب صاحب الحانوت فان كل شىء فى حانوته يسجل عن آخره فى وثيقة جرد موثقة ويحتفظون بها ، وربما يقولون . « نحن نفعل ذلك بناء على أمر سيدنا لكى نتجنبوا المتاعب وخطر النهب الذى قد يقوم به الأشرار لدينا والذين سوف يسعدهم أن يسلبوكم ، وهكذا فإنه بعملنا لن يجرؤ أحد على الحصول على ما ليس مستحقا له . فإذا ما حدث أى سلب — وقد لا يحدث ذلك مطلقا — فان سيدنا سيعمل على رفع الظلم بأمانة وحق كما هو مدون فى وثيقة الجرد » . وبعد انتهائهم من الجرد كانوا يسلمون المفتاح لملك الحانوت وهم يقولون : « احفظ حانوتك ، وبع بضاعتك ، افعل ما تشاء ، ووزع سلحك وفق ما نشاء » ، وفى نفس الوقت يكونون قد أثبتوا مبالغ النقود التى أحصوها فى الحانوت . وبهذه الطريقة حصلوا على بيان بكل ما هو موجود فى المدينة بالاضافة الى قدر هائل من الثروات التى تم نقلها الى الخزانة . وكثير من هؤلاء الرجال الحمقى الذين كتبوا قائمة بممتلكاتهم فى وثيقة الجرد وقد رأوا بضائع الآخرين الذين كانوا غائبين عن المدينة تنقل قسرا شكروا الله ، واعدتوا أنهم أكثر حكمة من هؤلاء الذين غادروا المدينة (٣٨) .

وبعد أن تم كل ذلك أمر تيمور سكان دمشق بالألا يسمحوا لأحد من أصدقائهم أو عائلاتهم بدخول المدينة باستثناء قلة تم تحديدها ، وقد زعم

(٣٨) تؤكد المصادر العربية بمزيد من التفاصيل كل هذه المسائل : البحث عن ممتلكات السلطان والأمراء والنجار والحكام البارزين الآخرين الذين لاذوا بالفرار من دمشق وقد تركوا وراءهم أسلحتهم وخيولهم وبغالهم . . الخ .

أنه فعل ذلك من أجل حماية وسلامة دمشق وسكانها • ولقد كان كاذبا في ذلك ، لأنه كان يضر شيئا آخر كما سيتضح فيما بعد • ثم أمر باغلاق طرقات المدينة في الأحياء الكبيرة ، كما أمر بانزال البوابات حتى لا يستطيع الانسان أن يدخل منها أو يخرج الا منحيا • وزعم بأنه على ذلك النحو ستتوفر لهم حماية أفضل ، ولكم

قادرين على نقل أى شىء من الداخل

أبواب المدينة ليلا ونهارا بواسطة رجال الحصص

المريبة هذه أمر في إحدى الليالى بشنق بعض الف :

ثيابا مثل ثياب جنوده ، وزعم بأنهم من معسكره ، وأنهم أرادو

دمشق من داخلها وخارجها • وعندما رأى سكان دمشق الأغبياء ذب -هم

صدقوه دون تردد ، ولوحوا بقبضاتهم في وجوه هؤلاء الذين حكم عليهم

بالشنق وقالوا : « انكم لم تستفيدوا شيئا أنتم يا من قدمتم من بعيد

كى تقتربوا الجرائم » • وأقاموا الصلوات في خشوع وتضرع اله

سبحانه وتعالى كى يطيل فى حياة ذلك الأمير الكبير ويمنحه الشرف

العظيم^(٣٩) • (ص ٢٢١) وأعلن تيمور أنه يرغب فى شق طريق من دمشق

الى عاصمته سمرقند وأن يوفر له الحراسة ايلا ونهارا حتى ينسنى للتجار

تبادل بضائعهم بين المدينتين ويزدادون ثراء • وقد صدق حمفى دمشق

كل ذلك من قلوبهم •

وكانت قلعة دمشق ذات موقع حصين وتمتاز بالجمال من الداخل

والخارج ، فأمر تيمور بمهاجمتها فورا ودون ابطاء ، فاستسلم الحصن

(٣٩) هذه القصة لا توجد فى المصادر •

بعد أيام قليلة^(٤٠) . ثم أمر بدكه وتسويته بالأرض^(٤١) . وبعد أن أسفولى على القلعة قال للقضاة الأربعة الكبار « لقد أحجمت بقدر الامكان عن أثقالكم بالأعباء لأننى قد توقعت أن أجد فى قاعتكم المشهورة مبلغا حبرا من نقود السلطان غير أنى لم أجد ذلك . فأنا مندهش وأصبت بخيبة أمل . أنتى حزين لأنه بسببكم لا أستطيع تقديم المساعدة لرجالى المحاربين وبوجه خاص أولئك الذين يسمون Ciacathy^(٤٢) الذين أهملوا وهم يستحقون مكافأة بسبب شجاعتهم ومكانتهم الكبيرة وأنا أقدرهم أكثر من الآخرين . لذلك يجب أن تساعدوهم وتعطوهم شيئا » . فأجابته الفضاة

(٤٠) ليس ذلك صحيحا على وجه الدقة فى ضوء المصادر العربية . إذ إن حصار القلعة الذى بدأ فيها يبدو فى ١٤ يناير استمر ثلاثة وأربعين يوما طبقا لما قاله ابن عربشاه ج ٢ ص ٩٨ . أما الاستسلام الفعلى للحصن فقد حدث فى ٢٥ فبراير . أما المقرئى وابن تغرى بردى وابن اياس فقد عدوا تسعة وعشرين يوما من وقت الحصار . وقد وصفت المصادر استعداد نامرلان للهجوم على القلعة والدفاع البطولى الذى قامت به الحامية المملوكية الصغيرة فى راجهة قوائم العدو الساحقة .

(*) ابن الدفاع البطولى الذى قامت به حامية قلعة دمشق انظر :

ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٢—٢٤٣ .

(٤١) كان نائب دمشق فى تلك الفترة هو يزداد Yazdadar طبعا لرواية المعنى ورقة ٤١ ب . أما ابن عربشاه فى ج ٢ ص ٧٦ فيطلق عليه اسم ازدار Azdar . وشرف الدين فى ج ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ بسميه بازدار Yazdar « حارس القلعة » .

(*) وفى نزهة النفوس للخطيب الجوهري ج ٢ ص ٨٨ هو الأمير يزداد .

(٤٢) تشير هذه النسبة دون شك الى أحد أبناء جنكيزخان الأربعة وهو جغتاي jaghatai الذى كان بحكم تركستان وكشغار وفرغانة وأرانى أخرى نمسا وراء نهر جيحون Oxus . وكان جغتاي بسبب معرفته الواسعة بقانون المغول القبلى الذى يعرف بالباسة له نفوذ كبير ، كما أن اتباعه فى جيش نامرلان كان لهم مكانة خاصة متميزة . انظر :

Barthold, Vorlesungen, pp. 214, 217 ; ulus Beg, pp. 17-25, Clavijo, pp. 190-191.

وانظر أيضا : ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٥٥٧ . ٥٦٢ . ٥٦٣ :

Encyclopaedia of Islam, S.V. Caghatai-Khan

الأربعة : « لم يبق منا على قيد الحياة الا قلة فقط : ونحن فقراء ، ومثل الرجال المهجورين ولا نملك شيء » . فقال لهم تيمور : « أنا لا أطلب منكم ما هو فوق طاقتكم » . وأخيرا توصلوا الى اتفاق على اعطائه مبلغ مليون وستمائة ألف دراهمة من الفضة^(٤٣) . ولم يحددوا أى نوع من الدراخمة يقصدون « وكانت فى الواقع مشابهة لإدراخمة دمشق » لكنها تعادل ثمانمائة ألف من الدوكات . وبعد أيام أحضروا الدراخمات من ذلك النوع اليه .

وأراد تيمور أن يرى ويلمس النقود التى كان أكثر من نصفها فى الواقع من الفضة ، (ص ٢٢٢) والباقى من النحاس مثل عملة سائر الأقليم أى سوريا ومصر . وعندما شاهدها تيمور ولمسها نظاهر بالغضب لأنه أدرك جيدا طبيعة العملة وحالة الاقليم وقال : « ما هذا ؟ » فأجاب القضاة : « انها النقود التى وعدناك بها » فسأل تيمور : « وكم وعدتم ؟ » فأجابوا مليون وستمائة ألف ، فقال تيمور : « هذا صحيح » ، فقال القضاة : « اذن خذها بسرور وها هى » فقال لهم : « لقد سمعت عنكم دائما أيها الدماشقة انكم لستم رجالا بل شياطين ملعونين أعداء شريعة الله والانسانية ، ويملؤكم الشر . ورجالا لا يحفظون عهودهم . ونقد نطق بالحقيقة من قال بأن شعب دمشق كانوا رجالا أشرارا . هل تريدون أن تحذعننى كما خدعنتم الآخرين بنقودكم المزيفة والرديئة التى رفضها الجميع بازدراء ؟ » وفى الحال أحضر الى مجلسه دراهمة باده^(٤٤) ،

(٤٣) سحدث المصادر عن مبلغ يصل الى مليون دينار .

(*) انظر المصادر العربية للنائلة : ابن مغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ . ابن اساس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١١ — ٦١٢ .

(٤٤) عن العملة المستخدمة فى ذلك الوقت والفوارى فى نسب نحوها . انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٥ ، ابن اساس ج ١ ص ٣٣٣ ، السلوك ورثة ٢٧١ . (*) انظر : ابن مغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤١ . ٢٤٢ . ابن اساس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٢ — ٦١٣ : المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٨ — ١٠٤٩ .

وكانت هذه من الفضة الخالصة وأكثر ثقلًا من عملات دمشق حتى أن واحدة من عملات تيمور كانت تزيد أكثر من اثني عشرة من عملات دمشق . وقال تيمور عندئذ : « هذه نقودى التى أعرف لها قيمة والتى ان مارست بها فى أى مكان أعمالى التجارية فانها تشرفنى . وعملتكم الزائفة التى لم أرها من قبل ليست لها قيمة ومرفوضة من الجميع » .

وعندما سمع القضاة ذلك هبوا واقفين شبه موتى من الرعب وقالوا وهم يبكون : « من العسير أن يصل بنا الأمر الى هذا الحد وأن نظل فى خدمتك » . ثم ان ضباط وقادة تيمور بدأوا يتصايحون بصوت عال . قائلين : « ضح حدا للاتفاقية التى أبرمت بيننا وبينهم ، ودعنا نتعامل معهم ، لأننا نعلم ما يجب عمله مع هؤلاء الناس الذين لا يصلحون شئ » . فقال لهم تيمور : « مهلا يا أبنائى ، فمع انكم تطلبون ما هو عادل فانه من الأفضل أن تتذرعوا بالصبر هنيهة » ، ثم انتهى بالقضاة جانبًا وقال : « لاحظوا هياج هؤلاء الرجال الذين يطلبون ما هو عادل ، وأنذروا كيف يهددونكم ، لذلك يجب اما أن تعطوا موافقتكم على الاتفاقية فيما يتعلق بالسداد والتى خرجت من يدى الآن ، وأن تطلبوا الرحمة من هؤلاء الرجال » ، فاضطرب القضاة وانتابهم الفزع وطلبوا أن يطلق سراجهم حتى اليوم التالى ليكون فى مقدورهم مناقشة تلك الصعاب مع مواطنيهم ثم يعطوا ردا وافيا فمنحوا ذلك (٤٥) .

ودخل القضاة المدينة وجمعوا مواطنيهم وأخبروهم عن وحشية السيكاثيين Ciacathari الذين كانوا رجالا مرعبين ، وتحدثوا عن الكيفية (ص ٢٢٣) التى سينتهى بها هذا الأمر — ونعتقد أنها نهاية مؤسفة — ، وأخيرا فانه بسبب خوفهم ولتجنب ما هو أسوأ فرروا أن يدفعوا ، وقد دفعوا ، أعنى تسعمائة وستين ألفا من الدوكات . ثم أن

(٤٥) ورد فى المصادر المشاورات التى دارت بين القضاة وساعديهم من ناحية واهل دمشق من ناحية أخرى .

تيمور طلب بعد أيام قليلة نقودا للآخرين الذين يطلق عليهم اسم «الخراسانيين» Corasenis (٤٦) ، فرفض شعب دمشق ذلك . وقد طلب هؤلاء الرجال مبالغ مبالغ أكثر لأنهم يفوقون السيكاثاريين Ciccathars عددا : وقد نشب خلاف كبير ثم اضطروا الى اندفع لهم كما دفعوا الى السيكاثاريين . غير أنهم لم يدفعوا لهم مباشرة بل أعطوا النقود لتيمور الذى أخذها لنفسها ووضعها فى خزانته ، ولم ينل السيكاثاريون والخراسانيون الا الكلام المعسول . وعندما رأى شعب دمشق ذلك طلبوا الاذن بمغادرة المدينة مجردين من أى شئ : فرفض تيمور ذلك لأنه بعد ابتزازهم مرتين أراد ابتزازهم للمرة الثالثة ، فغدا طلب أموالا لقبيلته مثلما طلب لاتباعه الآخرين . وعند ذك بكى الفخاء ورفضوا لكنهم اذا لم ينزلوا على رغبة الأمير فانهم سوف يعانون من عذاب لا يتصور سيقع على أشخاصهم . فأى شئ آخر يمكنهم تقديمه (هذا اذا كان يمكنهم ذلك) الى شعب تيمور كى يشتروا سكونه عنهم بنفس القدر الذى قدموه الى السيكاثاريين والخراسانيين .

ونتيجة لعدم رضاء تيمور عن ذلك الموقف من القضاة ، فانه أخذ يفكر فى طرق جديدة للابتزاز : فاستدعى قضاة دمشق الأربعة اليه زاعما أنه يرغب فى العودة الى بلده وتسعبه ، وأنه لذلك يعترم اذا امتد به الأجل تخليص شعب دمشق من كثير من الأعباء الثقيلة الكثيرة . واقترح أن يحقق لهم الثراء بمصاحبته من دمشق الى مدينته العظيمة سرقند حيث ينالون ثروة كبيرة ، وأنه سيعفيهم ن كل الضرائب اكراما لم (٤٧) . نم طلب تيمور منهم أن يمدوه — لأنه شيخ كبير متهاك — ببعض المساعدات التى تعينه على رحلته الى وطنه الذى يرغب فى رؤيته ، وأن يقضى ما تبقى له من أيام عمره القليلة فى سلام .

(٤٦) من الواضح ان المفصو بهذه التسمية هم اهل خراسان .

(٤٧) هذا اللفظ غامض .

(*) يبدو ان كلمة Calepind هى بحريف لكلمة Caliph اى الخليفة .

وقد وعدهم بالكثير اذا ما تمت الرحلة بسلام الى يلبده ، فرغضوا ذلك تماماً ، وبخرج شديد لعجزهم عن توفير المؤن ، ولكن عندما فكروا فى رحيله فانهم شعروا فى داخلهم بالراحة . ودخل القضاة المدينة ووضعوا أمام الشعب التماس تيمور نيابة عنه ، وراحوا يواسون الشعب بكلمات جافة غير مستساغة عن رحيته المتوقع . وابتهج الدماشقة الحمقى الضعفاء المضطربون (ص ٢٢٤) لأنباء رحيل تيمور ، بيد أنه اعتراهم القلق لطلب الأموال . وفى النهاية عرضوا خمسمائة ألف من الدوكات وهم على ثقة من رحيله ، لكن تيمور رفض ذلك المبلغ بازدراء لأنه فى رأيه قليل جداً ، وطلب المزيد وقال بأنه اذا لم يحصل على مطلبه فسوف يبتقى فى دمشق الى الأبد . وأخيراً جمعوا له مليوناً وخمسمائة ألف من الدوكات وقدموه وهم سيكون ويولولون وقد راودهم الأمل عندئذ فى رحيله ، كما شعروا بقليل من الراحة .

وعندما استخدم تيمور كل سفسطه الخبيثة لكى يحملهم على تسليمه أموالهم لجأ الى وسائله الشريرة السافرة كى ينتزع منهم المال الذى طلبه ، فأرسل الى موظفيه الذين يحملون قوائم الجرد التى سبق الاشارة اليها ، كما استدعى أصحاب الحوانيت للمثول أمامه . واحيطوا علماً بأنه نظراً لعدم كفاية المال المدفوع له فانه مضطر لاتخاذ وسائله أخرى من أجل النفقات التى سوف يحتاجها ذلك الجيش الكبير فى رحلته ، لذلك فانه قرر بأن السلع والبضائع الموجودة فى حوانيتهم ومصانعهم يجب عليهم اما أن يفتدوها بالمال أو تحرق وتحول الى رماد ، فانتحب الدماشقة البؤساء وقالوا انهم لا يملكون شيئاً . وعلى ذلك فان الذين لم يفتدوا بضائعهم فى الحال فانها حملت الى خزانة تيمور أو أحرقت ، ولهذا السبب فان الكثير قد افتدوا بضائعهم بالأموال التى يخفونها ، ودفعوا عنها فائدة حوالى نصف قيمتها . أما تيمور فاحتفظ بقوائم الجرد ، وبالتالى استطاع ابتزاز مبالغ كبيرة من المال ، كما تم اثبات كل ما قدموه وما بقى فى الحوانيت فى قوائم الجرد . ثم انتقل تيمور الى ممتلكاتهم التى لا يمكن حملها ، وعلى سبيل المثال : منازلهم وحوانيتهم ومزارعهم

وأشياء من ذلك القبيل ، وقد باعوا هذه الأشياء بنصف قيمتها أو أقل ، أما تلك التي لم تبع فقد خربت تماما ، وهكذا تكدست لديه مبالغ كبيرة من المال^(٤٨) .

وأخيرا عندما رأى تيمور أنه لم يعد فى استطاعته أخذ المزيد من الأموال سواء بالحق أو بالباطل استدعى نبلاءه وقواده وقال لهم : « لقد جمعت أموالا قليلة من هؤلاء الدماشقة التافهين بمشقة بالغة من جانبي . وادخرت النصيب الأكبر والأحسن لكم . انظروا ، انى أهبكم ما تبقى . عليكم أن تكونوا أقوياء وأن تعرفوا كيف تتعاملون معهم »^(٤٩) . ثم سلمهم قوائم الجرد وبها أسماء الملاك وأصحاب الحوانيت وقوائم البضائع والسلع وأماكنها . (ص ٢٢٥) كما أباح لهم سفك الدماء . فأطاعوه ونزلوا على رغبته طاعة الأبناء الأوفياء للأب الطيب . ودخلوا دمشق وقد تجردوا من كل القيم الانسانية واستدعوا الرجال الذين سلموا اليهم كسبايا . فابتدأوا بالاستيلاء على ممتلكاتهم ، ثم عذبوهم ضربا بالسياط ووخزا بالسكاكين وحرقا بالنار . ان القصة لا يمكن تصديقها اذا رويت . وهى أكثر اثاره للأسى اذا رؤيت ، لأنهم ربطوا الرجال الى قطعة من الخشب كما يربط الخزير ثم أحاطوهم بالنيران من كل جانب كما يفعل عند سواء اللحم . ومع تقليب قطعة الخشب يشتد الألم بصورة لا تحتمل . ويعلو صراخ الضحايا ، وغالبا ما وضعوا قطع الحديد الساخن الى درجة

(٤٨) تتفق كل هذه التفاصيل الخاصة بفرض الضرائب وأبنزار الاموال من اهالى دمشق مع ما ورد فى المصادر العربية .

(*) انظر على سبيل المثال : ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤١ — ٢٤٥ . المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ — ١٠٥١ .

(٤٩) يقال أن نامرلان اذن لجنوده بنهب المدينة فى السادس عشر من مارس واستمر ثلاثة أيام . ويقول شرف الدين فى ج ٣ ص ٣٤٣ « ان انجريد دخلوا دون نصريح ولكن الذى اناهم لعمل ذلك هو خطاب العام بامرلان وواقع فيه اللوم على السوريين لناييدهم الأمويين فى حربهم ضد على .

(*) عن نهب مدينة دمشق انظر : ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠ .

الاحمرار على لحم الضحايا حتى يعلو الدخان وله رائحة اللحم المشوي .
وبوسائل التعذيب هذه ضعف الكثير من الرجال فأظهروا ما كان نديهم من
مبالغ هائلة تجنباً لمزيد من التعذيب الذي يفوق التصور .

وبعد أن استخدم رجال تيمور كل الوسائل المشروع منها وغير
المشروع لاغتصاب الأموال ونضبت الموارد ، فان ذلك الرجز الملعون كما
كان يلعب تيمور أمر بنقل كل شباب البلدة الوسيم ونسائها الجميلات
وفتياتها الصغيرات والصناع المهرة وكل ما يمكن حمله بأعداد كبيرة ، أمر
تيمور بنقل كل هؤلاء الى معسكره خارج المدينة ، ثم أشعل النار في
مدينة دمشق بكل مبانيها^(٥٠) . لقد شاء الله حدوث ذلك بسبب آثام وظلم
الدماشقة الذي لا يوصف . ولقد خبرت بنفسى كثيراً من ذلك ، وجاعت ريح
عاصفة ظلت تهب ثلاثة أيام بسرعة فائقة حتى أن أى سفينة كانت تبهر
بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة بصرف النظر عن نوع الشراع الذي
تبهر به . وهكذا فانه لأمر محزن أن نقص كيف تحولت مدينة بهذه
المضخامة الى جبل من الرماد^(٥١) . وحتى لو كان شعب دمشق لهاسدا

(٥٠) حدث ذلك بناء على أمر تامرلان في ١٧ مارس . أما المؤرخ الفارسي
شرف الدين فيزعم أن النيران قد اشتعلت في المدينة بمحض الصدفة .

(*) تؤيد المصادر العربية اشعال النار في مدينة دمشق . انظر : ابن
نغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٥ ، القرطبي : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص
١٠٥١ ، ابن أبياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٦ .

(٥١) لا يسر دى ميچناتللى الى آخر الاعمال الشريرة التي ارتكبتها
جيش تامرلان ، وهو حرق الجامع الأموى . وربما كرجل مسيحي (دى
ميچناتللى) لم يكن مهتماً بذلك ، وربما تكون النار التي أشار اليها قد شملت
المدينة والمسجد معا . عن حريق المسجد الأموى انظر :

Clavijo, pp. 173-195 ; Schiltberger, pp. 22-33 ; Memoire, p. 455;

وطبقاً للمؤرخين الفرس فان تامرلان حاول بالفعل انتزاع المسجد وارسل
شاه ملك لهذه المهمة . ولكن بالرغم من كل الجهود التي بذلها جنوده فان
المئذنة الشرقية قد تحطمت تماماً مع انها كانت مبنية من الحجر ، في حين انفذت
مئذنة المنبر بمعجزة مع انها كانت خشبية . « وشبه ذلك بقضيب او عصا
المسيح » . انظر : شرف الدين ص ٣٤٦ ، نظام الدين ص ٢٣٠ .

جدا فأننى مضطر لأن أحزن على هلاكه • لقد تحققت كلمة النبی اشعيا فی الفصل ١٧^(٥٢) الذى كان موضوعه دمشق « انظروا (ص ٢٢٦) ان دمشق ستنتهى كمدينة وتتحول الى كومة من الأحجار » • وأیضا تحققت كلمات جرميا التى جاءت فی منتصف الفصل التاسع والأربعين^(٥٣) • يجب أن نحزن حقيقة على المدينة الجميلة ، ومن غير شك فان دمشق لم تكن ضخمة جدا فهى تبدو أصغر قليلا من مدينة بيزانا Pisana ، وهى تقع فی سهل ، ولها حصون قوية وضواحي • وكانت كثيفة السكان اذ بلغ تعدادهم — فیما یعتقد — عندئذ مائة ألف مواطن^(٥٤) • أما من الداخل فكانت غاية فی الجمال وتسر الناظرین ، وبيوتها الرائعة جدا كانت مغطاة من قممها الى قاعدتها بالحجارة المتعددة الألوان ، وفی وسطها نافورة

Shaéraf ad-Din, p. 346 ; Nizam ad-Din, p. 230.

وطبقا لابن مريشاه ج ٢ ص ١٣٢ فان رافضة خراسان قد اشعلوا النار فی المسجد •

(*) تؤكد المصادر العربية احراق مسجد بنی أمية ، انظر ابن خري بردي ج ١٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ حبث بقول « وسقطت سقوف جامع بنی أمية من الحريق • وزالت أبوابه ، وتطير رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة » • وانظر ابصلا : المقریزی : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن عريشاه : عجائب المقثور ص ١١٧ •

(٥٢) يشير الى اشعيا فصل ١٧/آية (١) •

(٥٣) انظر جرميا فصل ١٩/آيات ٢٣-٢٧ •

(٥٤) تشير تقارير الرحالة الأوربيين المعاصرين الى نفس حجم التعداد تقريبا • انظر :

B. de la Brocquiere, Piloti, frescobaldi etc...

وايضا الاشارات الى ذلك فی :

Heyd, Levante handel,

(*) انظر رحلات بروكيير فی :

Thomas Wright, early travels, The travels of B. de la Brocquiere A D-1432-1433, p. 294.

تقذف بتيار مستمر من الماء المتدفق في اتجاه السماء • وكانت تلك النافورة هي مصدر مياههم للطبخ وغسل كل الأشياء المتعلقة بهذه العملية • وكانت المدينة تزخر بكثير من النافورات في الأحياء والطرقات • وليست لي ميول تجاه المياه التي من ذلك النوع لأنها ضارة جدا لنا نحن اللاتين •

وكان في دمشق رئيس رسمي لكل حرفة تحت الشمس تقريبا ، للذهب والفضة والحديد والتطن والكتان والزجاج والنحاس الأصفر^(٥٥) • وكانت هذه المناطق الريفية تنتج بصفة عامة من ماء الورد الرائع باثجا سنويا يحتاج الى أربعة آلاف بغل لنقله ، وهو ما يعادل ألك معيال طبقا لمكايل سينا Siena أي ألف أو ألف ومائة بوشل Bushels من نابلي • كما كان ينتج في كل عام في ثمان مطابخ ما مقداره من السكر ثلاثة أو أربعة آلاف جرة • وقد كانت هذه المطابخ ذائعة الصيت آنذاك في هذه الصناعة • وكانت جرة السكر الدمشقية آنذاك تحتوى على ستمائة رطل بندقي • حقا ان هناك أشياء خرافية كثيرة يمكن ذكرها عن تلك المدينة وعن اضمحلالها الشديد بعد تدميرها وخرابها بصورة تثير الأسى عند سماعها ، كما أنها أكثر إثارة عند رؤيتها • وأنا لا أنوى تسجيل هذه الأشياء ، لكن حسبى أن أقول أن أهل دمشق يتفوقون بكثير عن سواهم في المشرق بأسره في الشر والخبث باستثناء أولئك الذين قدموا من بيت المقدس ، فهم أكثر سوءا^(٥٦) •

وعندما سأل تيمور أحد الدماشقة الذين وقعوا في الأسر « ماذا تقول عني أنا الذي فعلت مثل هذه الأعمال الكبيرة ؟ » ، أجابه الدمشقي بمنطق

(٥٥) نمة إشارة الى نقابات الحرفيين في دمشق ، وبعطينا دي ميجناتللي وصفا شيقا للموقف الاقتصادي في ذلك الوقت •

(٥٦) لابد ان دي ميجناتللي شأنه في ذلك شأن غالبية المسيحيين المتعبين هناك كانت له نجارب مريرة جدا مع السكان المسلمين في دمشق • كما أن دي لابروكيير يشير أيضا الى معاملة المسيحيين في دمشق في ذلك الوقت •

ومدح زائف : « أمير لا يقارن عظيم في القوة والشجاعة ، مبجل ، عطوف وحنون ، وجدير بكل مدح » (ص ٢٢٧) فأجابه تيمور : « انك كاذب ، فأنا سوط عذاب اختاره الله لمعاقبتكم لأنه لا يوجد هناك من يعرف علاج آثامكم الا أنا : انك شرير ، وأنا أكثر منك شرا . لذا عليك بالصمت » (٥٧) .

ولا يوجد اتفاق حول الاستعراض العسكري الضخم الذي أقامه تيمور لجيشه ، فقد قيل انه كان لديه ثمانمائة ألف رجل (٥٨) . ومن المعلومات التي سمعتها في ذلك الوقت ومن مصادر جيدة أمكنني اكتشاف الرقم : فباحصاء الشغالة وقاطعي الأحجار وصانعي الأحذية والمكاريين

(٥٧) لابد أن المقصود بهذا الدمشقي هو ابن خلدون الذي سمع دى ميجناتللي عن لقائه الشخصي مع نامرلان . وأن الوصف الوارد هنا خاصة بمباراة التملق تناسب وتتفق مع وصف ابن خلدون نفسه للقائه مع هذا الضاري . ويبدو أن دى ميجناتللي لم يكن على علم بالموضوعات الرئيسية التي دارت حولها مناقشة ابن خلدون مع نامرلان في أوائل عام ١٤٠١ م في دمشق . وقد قرر ابن خلدون في لقائه مع نامرلان الآتي : « لقد اشتقت طيلة ثلاثين أو أربعين عاما للقائك ، وأنه لم يكن هناك على ظهر الأرض منذ آدم حتى هذا العصر حاكم مثلك » . ومن ثم فإن خلدون يعطينا الانطباع بأنه تتبع حياة نامرلان خلال جبل كامل ، وأنه قد حصل على معلومات كثيرة عن حياته ونشاطه .

لمزيد من التفاصيل انظر :

W. J. fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, pp. 36-37, 81-82.

(*) عن هذا الموضوع انظر أيضا :

ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . نشرها محمد بن تاووت الطنجي ص ٣٦٨—٣٧٤ . والتر فשל : لقاء ابن خلدون لسمورلنك . ترجمة محمد توفيق ص ٧١—٧٧ .

(٥٨) ثمة تقارير متضاربة كثيرة عن جيش نامرلان في المصادر العربية والأوربية . ويقول ابن الفرات ج ٢ ص ٣٧٠ ان قوة جيش نامرلان بلغت مائتين وأربعين ألفا ، منهم ثلاثون ألف محارب . أما ابن عريشاه ج ١ ص ٦١٦ مانه بقرر بأن قوة جيش نامرلان العديدة بلغت ثمانمائة ألف .

(*) بفترض ابن خلدون أن جيش تيمورلنك كان أكثر من مليون . انظر : والتر فשל . لقاء ابن خلدون ص ٨٥ .

والنجارين والبنائين والحرفيين والطهاة والطحانيين ، ومن يقومون بأعمال يدوية أخرى ، باحصاء كل هؤلاء أؤكد أن قوام الجيش لم يزد على ثلاثمائة ألف ، ولم يكن لديه محاربون بالرماح لأنهم لم يتدربوا على استخدامها ، فقد كانوا يستخدمون السيوف والأقواس فقط . وكانوا يحملون دائما القروس الكبيرة بدلا من دروع الصدر والدروع الأخرى الكبيرة . وكان تيمور غالبا ما يقود بنفسه ثلاثين ألفا من رجاله ، كما كان لديه جيوش صغيرة الحجم مدربة على الحياة الشاقة^(٥٩) ، وكل رجاله ودواب خمله كانت تتحمل مجهودات شاقة لا تصدق .

كان تيمور في ذلك الوقت كما قال رجاله في الرابعة والسبعين من عمره^(٦٠) ، اننى لم أره بنفسى كما رفضت أن آراه ، ولكى اتجذب بمثل ذلك الاحتمال فاننى هربت الى مصر . ولقد كان أعرجا بدرجة كبيرة حتى أنه كانت لديه قدم مرفوعة عن الأرض لأن رجله هذه كانت مشلولة . ويقال بأن ذلك قد حدث باحدى طريقتين (ص ٢٢٨) لا أميل الى تأييدهما أو

(٥٩) انظر :

G. Roloff, *Asiatische und europäische Kriegsführung*, in : *Der Islam*, 1940, vol. 26, pp. 110-115 and E. Strauss, *Toldoth ha-yehudim*, pp. 14-15.

(٦٠) لما كان من المعتقد بصفة عامة أن تاملان ولد في ٨ أبريل ١٣٣٦م / ٧٣٦ هـ فلابد أنه كان في حوالى الخامسة والستين من عمره عندما كان في دمشق . وطبقا للنجوم ج ٦ ص ٢٨١ ، ابن عربشاه ج ٢ ص ٧٨٢ فإن تاملان مر حتى سن الثمانين ، وأنه مات في عام ١٤٠٥م / ٨٠٦ هـ طبقا للمصادر العربية .

نفيهما (٦١) • لقد قيل انه قد جرح بمقذوف وهو فى شبابه فأصيب أحد جانبيه بالعجز • ويقول البعض بأن ذلك قد حدث له عندما أسر وهو يقوم بأعمال قطع الطرق واللصوصية • وأراد أولئك الذين أسروه قتله لمنعه من ارتكاب المزيد من الجرائم ، ولكنه نجا من الموت بسحر كلماته التى برع فيها وأجادها ، ويقسمه ووعدته أن يضع حدا لعمليات النهب • وكان تيمور رجلا فى غاية الوسامة واللطف ، يتمتع بمظهر رقيق وودود (٦٢) • ويعارض ذلك رأى أفلاطون فى أن الجمال يقترب بالطيبة ، لأن تيمور كان وسيما ومع ذلك كان شريرا • وقد زاد شره مع تقدمه فى السن •

• (٦١) تقول كل المصادر أن تيمور أصابه العرج بسبب سـ (النجوم ج ٦ ص ٧٤) • وطبقا لكلافجو Clavijo, p. 217 فار ساقه اليمنى عندما كان يقوم بغارة على سيستان ، وأنه ظل نـ اعرجا طيلة حياته • فضلا عن فقد أصابه جرح فى يده اليـ اصبعين صغيرين • أما لفظ اعرج فى الفارسية فهو Lank ومن ثم جاءت كلمة Timurlank تيمورلنك • وفيما بعد أصبحت تاملان Tamerlane فى الاستعمال الأوربي •

(٦٢) عن المظهر الجسماني لتاملان انظر :

ابن عربشاه ج ٢ ص ٧٨٠—٧٨٢ ،

Clavijo, p. 22 ; Memoire, p. 463,

وانظر النجوم ج ٦ ص ٢٨١ حيث قال : « وكان تيمور طويل القامة ، كبير الجبهة ، عظيم الهامة ، شديد القوة ، أبيض اللون مشربا بحمره ، عرس الأكفاف ، غليظ الأصابع مسترسل اللحية ، أشل اليد ، أعرج اليمنى ، ننوعد عيناه ، جهر الصوت ، لا بهاب الموت ، قد بلغ الثمانين وهو منيع بحواسه وقوته » .

(*) انظر : ابن نغرى بردى : النجوم ج ١٣ « نحقق فهم محمد شلموت — الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر سنة ١٩٧٠ م » ص ١٦٢ .

ويلاحظ أن ابن اباس أورد صفات جسمة لتيمور مخالفة فقال « وفل كان تيمورلنك مع وجود هذه السطوة العظيمة اعرج بوركه البهني • • قصير القامة ، غليظ الجسد مسدس اللحية • وفد وكزه الشبيب • ولم يكن ينسب الى فروسية ولا شجاعة ، ولكنه كان كثير الحل والخداع » . انظر : ابن اباس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٦ .

وعندما كان تيمور شابا تزوج سيدة كهلة غنية تسمى قمر الدين^(٦٣) ، وظل طوال حكم ابن زوجته المعروف باسم السلطان محمود عادلا^(٦٤) وصالحا ورحيما وسخيا بافراط وموضع ثناء . ولكن عندما تقدم به العمر وذهب الى ثانا Thana في بلاد التتر سنة ١٣٩٥ م — وكنت انذاك اقيم في دمشق ، فانه أصبح موضع اللعنات العلنية ، وازداد ظلمه فداحة .

اننى لم اعبر عن حزنى العميق لتدمير دمشق ، تلك المدينة العظيمة ، دون سبب وجيه ، فقد جئت اليها شابا فقيرا معدما ، ووجدت فيها الثروة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة التى تعرضت لها من جراء خبث هؤلاء الناس . مع أن ما عانيت منه كان أقل مما عانى منه غيرى من المسيحيين . وكثيرا ما عانيت على يديهم ، وفى بعض الأحيان لم يمر هؤلاء دون عقاب ، فكثيرا ما نشرت الخوف فى قلوب أولئك الرجال الوقحين . (ص ٢٢٩) وطالما أن السلاطين الذين كانوا يحكمون هذه المناطق^(٦٥) معجبين بنا نحن اللاتين فقد ينتهى الأمر .

(٦٣) لا تؤيد المصادر ذلك ، انظر :

Encyclopaedia of Islam, S.V. «Timurlang», vol. IV, p. 779.

(٦٤) الاشارة هنا الى السلطان محمود ابن زوجته . ولم يكن تامرلان فى حقيقة الأمر ملكا أو حاكما اذ أن الجالس على العرش « صاحب البخت » كان محمود خان الذى عينه تامرلان سلطانا فى حين قام تارلان بإدارة شؤون الحكم . أما اسم والد محمود فهو صرغتمش Suyurghatmish ، وقد تزوج تامرلان بام محمود بعد وفاة والده . « انظر النجوم ج ٦ ص ٨٤ ، ١٥٨ » . وبعد غزو دمشق أمر تامرلان بأن تقام الصلوات فى المسجد الأموى حيث بذّر اسم السلطان محمود وولى عهده ، فالخان المعين أو الحاكم كان يذكر اسمه فى صلاة الجمعة . (النجوم ج ٦ ص ٦٥) .

(*) انظر النجوم ج ١٢ ص ٢٤٢ .

(٦٥) يشير الى السلطان الملوکی برقوق ١٣٨٢—١٣٩٩ م وابنه نرج ١٣٩٩—١٤١٢ م .

بضرب من يسيء الى بالسياط بقسوة على يد الممالك الى حد نزع الدماء ،
وبهذه الطريقة كبحت جماح خبث المواطنين الأشرار الى درجة كبيرة .

ورأى تيمور أن قبيلته قد أثقلت بالملكات والكنوز ، وعلم أن
السلطان التركي بايزيد قد جمع جيشا كبيرا بهدف الاستيلاء على سوريا ،
كما تطلع الى ذلك من قبل ؛ اذا تقدم تيمور الى القاهرة حسبما سارت به
الشائعات . وعندئذ فكر تيمور وقرر وهو مثقل بالأسلاب والسبايا أن
يعود الى بلاده بصفة مؤقتة^(٦٦) . فاصطحب معه العذارى الصغار
الحسنات والأولاد وسائر رؤساء الحرف الرسميين الذين حفلت دمشق
بعدد كبير منهم ، وترك تلك المدينة في حالة خراب وقد احترقت مثل نل
من الرماد^(٦٧) . وبقي في أحد أرجاء المدينة عدد قليل من المنازل الصغيرة
التي لم تمتد اليها النيران وهي تخص مسيحيي كنتورا Centura
على الجانب الشرقي^(٦٨) . ومن الحقائق المسلم بها أن النار ظلت مشتعلة
بضراوة في المدينة بعد رحيل تيمور طيلة تسعة شهور ، ولقد شهدت ذلك

(٦٦) جاء في النجوم ج ٦ ص ٨١ ان تاملان لم يعد حقيقته الى وطنه ،
لكنه أعطى الانطباع بأنه سيفعل ذلك حتى يصرف انتباه أعدائه . وفي نهاية
الأمر خدع جيوشه عمدا وسار للمرة الثانية الى حلب ثم اتجه عن طريق الرها
وماردين فجاء الى بغداد في ٩ يولية سنة ١٤٠١ م ، وبعد ذلك اتجه الى آسيا
الصغرى حيث اوقع الهزيمة بجيوش العثمانيين بقياده بابزبد في موقعة أنقرة
الشهيرة .

(*) انظر النجوم ج ١٢ طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٦٥—٢٦٨ .

(٦٧) هناك اتفاق عام بين كل المصادر على نقل تاملان الحرفيين من
دمشق الى سمرقند . ومن المعروف أيضا ان تاملان أخذ معه الى سمرقند
عمال مهرة وحرفيين من كل نوع من دمشق والمدن الأخرى . وطبقا لكلافجو
وشرف الدين فان تاملان أخذ كل النساجين وصناع الأقواس والحرفيين من
صناع الزجاج والبورسلين من دمشق . انظر :

Clavijo, p. 134, 287 ; sharaf ad-Din, III, pp. 340-347 ;
Heyd, Levante handel, pp. 467-468.

(٦٨) لم يكن الاستدلال على هذا اللفظ .

بنفسى ، لذا فليتيق كل الناس عدالة الله القهار سبحانه وتعالى • وليحفر المرء من أن يستمد المجد من ظلمه مهما بلغت قوته ، فقد أراد الله أن ينتقم منهم بقسوة شديدة لخطاياهم ، فلم يعد لديهم ما يقتاتون به لأن كل شيء قد امتدت اليه يد التدمير ، وكان عليهم أن يجلبوا المؤن من مسافات بعيدة • وأرسل الله عليهم من السماء حشودا هائلة من الجراد المفترس ، وقد حدث ذلك فى شهرى مارس وابريل بعد رحيل تيمور الذى غادر دمشق فى مارس (٦٩) •

ونتيجة لذلك فانهم لم يستطيعوا حصد محاصيلهم فى ذلك العام ، فقد التهم الجراد كل شيء ، ليس فقط براعم النباتات وثمارها بل أيضا (ص ٢٣٠) سيقانها وأوراقها وجذورها ، وتضور الدماشقة المساكين جوعا على نحو يصعب تصديقه ، وافتقدوا كل وسائل الاغاثة ، وقد هلك عدد من الناس من العوز والجوع والبؤس ، بل ان الهواء قد تلوث بالروائح الكريهة نتيجة لتعفن الجثث فى الشوارع والطرقات حيث لم يجد الموتى من يدفنهم ، ولم يستطع أحد أن يعيش فى أى مكان باستثناء القلاع التى لم تحترق • وخارت قواى الجسدية والعقائية من روائح الجثث الكريهة ومن الاضطرابات الشديدة ، ولم أستطع أن أكل شيئا أو أنام من شدة الخوف • ولم أكن فى دمشق على أى حال فى الوقت

(٦٩) تخلف الأموال حول مدة إقامة تاملان فى دمشق ، فيقول البعض انها ثمانون يوما « النجوم ج ٦ ص ٦٨ » أما فى Memoire, p. 455 فهي تسعون يوما •

وقد غادر تاملان دمشق فى ١٩ مارس سنة ١٤٠١ م • انظر السنوك ورقة ٢٧ ب ، ابن عربشاه ج ٢ ص ١٣٤ ، النجوم ج ٦ ص ٦٧ ، المنهل ورقة ١١٤٩ ، العينى ورقة ٢٤ ب •

(*) انظر النجوم ج ٢ ص ٢٤٥ ، انلقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن اياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٦ • وتؤكد المصادر العربية هجوم الجراد على دمشق : انظر النجوم ج ١٢ ص ٢٥٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٣٨ •

الذى كان تيمور موجودا هناك ، وعندما جاء تيمور الى دمشق كنت فى مدينة بيت المقدس • ولقد ذهبت الى هناك فى بادىء الأمر من تلقاء نفسى ، وفيما بعد للصلاة من أجل أبى ، ومكثت هناك طوال الشتاء لترويج عن نفسى وللعبادة • وعندما جاء تيمور وانكسرت جيوش السلطان ولاذت بالفرار بدأت رحلتى مع خادم واحد وقنصل كافا المدعو جانونيسى Janonuense of Cafa واتخذنا طريقنا الى دمياط ثم القاهرة عن طريق النيل • ومع فقدان كل ممتلكاتى سواء هناك (فى دمشق) أو فى روما ، فانى اتجهت الى الاسكندرية^(٧٠) • ولقد نويت أن أتجاهل فى ذلك المجلد قصة رحلاتى ، وسوف أعود الى أعمال تيمور • فبعد رحيل تيمور عدت من الاسكندرية الى القاهرة ثم بعد ذلك الى بيت المقدس • ومن هناك اتجهت الى قبرس ، وسافرت فى حزن عظيم حتى وصلت الى دمشق أخيرا لأجدها فى حالة خراب مروع • وسوف أمر مرور الكرام على ما حدث فى تلك الأثناء ثم أعود مرة أخرى الى أعمال تيمور^(٧١) •

(٧٠) نعطينا هذه التفاصيل اضافات عن ترجمة حياه دى ميجناتلى التى سبق الانساره البهاى المقدمة •

(٧١) اضاف دى ميجناتلى بعد ذلك وصفا لمعركة تامرلان ضد السلطان العثمانى بابزید ، ووصف معركة انقرة وغزو سميerna Smyrna (ازمير) ، وكذلك غزو تامرلان لبغداد • ثم اضاف مقالة عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) • أصله ودبائسه • واختتم دى ميجناتلى مقالته بفصل عن اليهود وباريخهم الحق بالمقالة فيما بعد سنة ١٤٤٦ م • وقد استبعدنا كل هذه المساهمات من الدراسة الحالية •

(*) جاء فى تعليق فيشل W. Fischel بعض الألفاظ الغير لائقة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى الألفاظ التى اعتاد الكتاب الغربيون برديدها • وقد استبعدنا فى الترجمة العربية هذه الألفاظ •

مصادر ومراجع التحقيق

(١) المصادر العربية

- ١ — ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٩٣٠ هـ
بدائع الزهور فى وقائع الدهور — الجزء الأول القسم الثانى ،
تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م •
- ٢ — ابن تغرى بردى : جمال الدين أب والمحسن يوسف ت ٨٧٤ هـ /
١٤٧٠ م •
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة :
ج ١٢ : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية •
ج ١٣ : تحقيق فهد محمد شلتوت — الهيئة المصرية العامة
لتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م •
ج ١٤ : تحقيق د. جمال محمد محرز ، فهد محمد شلتوت •
الهيئة المصرية العامة للكتاب • القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م •
- ٣ — ————— :
— الدليل الشافى على المنهل الصافى • ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق فهد
محمد شلتوت • طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣ م •
- ٤ — ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢ هـ •
أبناء الغمر بأبناء العمر • تحقيق د. حسن حبشى • ثلاثة أجزاء •
لجنة احياء التراث الاسلامى • القاهرة ١٩٦٩ م — ١٩٧٦ م •

- ٥ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م
التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا • نشره محمد بن ناويث
الطنجي — القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة
١٩٥١ م •
- ٦ — ابن عريشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد •
٦ — كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور • الطبعة الأولى •
مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ •
- ٧ — ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد ت ١٠٨٩ هـ
شذرات الذهب في أخبار من ذهب • طبع المكتب التجارى للطباعة
والنشر والتوزيع — بيروت لبنان •
- ٨ — ابن قاضي شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد • ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م
تاريخ ابن قاضي شهبة : ج ٣ تحقيق عدنان درويش ، طبع دمشق
١٩٧٧ م ، مجلد ٤ مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٤٠٢
تاريخ تيمور •
- ٩ — ابن طولون : شمس الدين محمد بن على ت ٩٥٣ هـ
قضاة دمشق « الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام » •
تحقيق صلاح المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م •
- ١٠ — الخطيب الجوهري : على بن داود الصيرفي ت ٩٠٠ هـ •
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان • ثلاثة أجزاء ، تحقيق
د. حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م
- ١١ — العيني : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ •
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان • مخطوط بدار الكتب بالقاهرة
رقم ح ٨٢٠٣ ، مجلد ٢٦ ، ٢٧ •

١٢ — المقرئى : أحمد بن على • ت ٨٤٥ هـ .

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك •

- ج ١ : فى ثلاثة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة — لجنة
التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨ م •
ج ٣ : فى ثلاثة أقسام تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور •
مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧١ م •

١٣ — والترفشى :

- لقاء ابن خلدون لتييمور لنگ — ترجمة محمد توفيق وردى —
منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت •

(ب) المصادر الأجنبية

1. De Mignanelli, Ascensus Barcoch, Translated from Latin to English by W. Fischel, in « Arabica Vol. 6, 1959 ».
- II. Gonzalez de Clavijo, Embassy to Tamerlane 1403-1406, Translated from the Spanish by Guy le Strange, London 1928.
- III. E. Piloti, L'Egypte au Commencement du quinzieme siecle, Le Caire 1950.
- IV. Thomas Wright, Early Travels, the travels of B. de la Brocquiere.

مطبعة الجبل اوى

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٣٠١

To: www.al-mostafa.com